قصص
عربية

كتاب على الرف

وقصص أخرى

عباس خضر



فى هذه القصص يمتزج الفكر والوجدان ، كما يمتزج الواقع والخيـال ، ويعمل العقـل والقلب معا مجتهـدين أن يجسـدا المضمون مُلقَّفا بالشكل الفنى .

والمؤلف ينظر حوله ويتأمل فى أعماقه ، لا يتقيد إلا بما يمليه عليه الفكر والوجدان كائنا ما كان . انه لا يرسم لنفسه خطا معينا يسير على مقتضاه ، انما هو ينقض نفسه على الورق ماضيا على سجيته دون أن يلتفت يمينا أو يسارا ، لا يشغله تصنيف ولا توصيف .

والكاتب ـ على وجه عام ـ يميل إلى النقد الاجتماعى ، ويصعد أحيانا إلى الانسانية العامة ، ودائما يغوص إلى أعماق النفس البشرية ، وإذا اتجه إلى المثالية الخلقية فإنه يكون شديد الحذر من الوقوع فى المباشرة .

ولعل القارىء يجد فى هذه القصص المتعة الفنية إلى جانب الالتزام بالموضوع ، فإن وجدها فهذه هى الغاية التى يـرمى إليها الكاتب والتى يقصد إليها بطبيعته دون تكلف .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



كتاب على الرّف

وقصص أخرى

الاخراج الفنى : سهير مصطفى

كتاب على الرّفّ

وقصص أخرى

عباس خضر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الإهداء

الى صـــديقى القارىء .

الى من يحب القراءة .

الى من يهتم بقراءة هذه القصص .

انه أقرب الناس الى فكرى ووجدانى .

١٩٨٥/١١/١٥

عبـــاس خضر

كتاب على الرف

قبل أن أوجد ، وقبل أن أعرف باسمى « اللآلىء فى البحر الزاخر » كنت أفكارا سابحة فى ذهن مؤلفى ، طالمـا جالت فى خاطره ، وطالما أرقته أفكارى .. مسـكين مؤلفى : تعب كثيرا فى لم أشتاتى وتبويب أبوابى .. لم يكن يحفزه على ذلك كسب مادى أدره عليه كما تفعل المشروعات الأخرى ، مع أن هـذه ربما لا تأخذ من أصحابها جهدا كالذى يبذله المؤلفون . وأى مشروع غير الكتب يسهر فيه صاحبه الليالى ويعتصر فيه أفكاره ويسجلها على الورق ؟

ومما كابـده مؤلفى المسـكين أن راح يبحث عن ناشر ينشرنى .. ثم تمخض البحث والأخذ والرد على مبلغ تافه من المـال دفعه اليه حقا للنشر ، بعد أن ازدرد المؤلف كل ما قاله الناشر من أن « الحال واقف » والكتاب يتكلف ورقا وطباعة وتدبيسا وتغليفا وما يقتضى ذلك من مواد غالية وعمال مرتفعى

الأجور ، وأضاف صاحبى فى نفسه : ومؤلف رخيص الثمن ان كان له ثمن !

ولم يهنأ بذلك المبلغ ، اذ لاحقته « الضرائب » وأخذت بتلابيبه بيد من « حرير » هى يد فتاة « مأمورة الضرائب » .

نهاية الأمر .. بعثت أنا برغم ذلك كتابا سويا ، فرح بى المؤلف كل الفرح ، صار له كتاب مطبوع غلافه محلى بصورة يرجى أن تجذب القارىء ، ووضع اسمه عليه ، ما أحلاه .. بل ما أعظمه !

اشترى من السوق نسخا تضاف الى النسخ التى يجود بها الناشر ، كى تكون هدايا ، كأنه كان يعمل فى بلد نفطى وعاد .

النجار - مثلا - يصنع ما يصنع ، ولا يهدى الى أحد دولابا ولا كرسيا ولا حتى « طبلية » مطبخ ، أما المؤلف فهم يقولون له فى الظاهر : أيها المؤلف العظيم .. وفى الباطن : هات الكتاب ، فنحن لا ندفع مالا فى كتب .

ثم كانت نهاية المطاف أن أوضع على الرف ..

لم يقرأنى صاحبى الذى أنا فى بيته ولا غيره ، لم يهتم أحد بأن أكون صديقه وخير جليس له ، كما قيل قديما : الكتاب خير جليس وأخلص صديق . وكم تحتوى دفتاى على

كثير من هذه الأقوال ، ولكنه كلام يقال ويقرأ ولا يعمل به ، ولهذا يعرضون عنى ولا يأبهون بى .

الاهتمام كله موجه الى ذلك القابع المرابط فى ركن الردهة .. المسمى « تليفزيون » الكبير والصغير والرجل والمرأة ــ كلهم يتجهون اليه حينما يعمل ، حينما يدار فتعكس شاشته الصور والمناظر ، ويتحدث به المتحدثون . فى أحيان قليلة ، يتحدثون فى ندوة من ندواته حديثا خاطفا عن كتاب ، ولكن من يقرأ ومن يسمع كما يقولون .

على غلافى صورة جميلة ، قد تجتذب بعض الأنظار فتمتد الى اليد وأنا قابع على الرف ، فأقول فى نفسى : جاءك الفرج ، فهذا زبون فتح الله عليه فجاء يفتحنى ، ولكنه لا يفعل أكثر من النظر الشذر فى بعض صفحاتى ثم يطوينى ويضعنى كما كنت ، وأحيانا يكون ذلك عندما يريد أحدهم أن يتسلى بأى شىء قبل اعداد المائدة .. ولتكرر هذا صرت لا أعبأ بهؤلاء ، وأكاد أقول لهم : دعونى .

***

بجوارى زميل مجلد تجليدا فاخرا آل الى صاحبنا بالميراث، من مكتبة والده المرحوم ، تحدث الى مرة هذا الزميل قال : كان صاحبى الأول يقتنى الكتب بعد تجليدها وكتابة اسمه

على كعوبها بماء الذهب ، ويعرضها فى أناقة ، بحيث تكون كعوبها هى الظاهرة البارزة ، كى تراها العيون أول ما ترى •• وكان ذلك الصاحب يقرأ أحيانا ليتسلى ، فلم يكن هناك تليفزيون ، ولهذا كان يبدو على مستوى ثقافى لا بأس به ، كان يعرف من الاطلاع علينا ما لا يعرف الآن هذا الجيل ثم صرنا وصاروا الى هذا الحال كما ترى لا أحد يريد أن يتثقف بقراءتنا ولا نحن نتحرك من مواضعنا الا عند التنفيض •

ثم يتنفس ذلك الزميل القديم ويقول :

هيه •• رحم الله أيام زمان !

القوم جميعا يجلسون الى التليفزيون الرجال والنساء والأولاد ، ضيوفا أو أصحاب منزل • والنساء يثرثرن بالرغم من أنهن يسمعن ويشاهدن •• والغريب أنهن يعين هذا وذاك •• كما تعى الواحدة منهن كلام اثنتين أو أكثر يتكلمن معا •

وكثيرا ما يعلقن على ثياب الممثلات ومودادتها و «الباروكات» وأنواعها وأثمانها ••

***

قد تمتد الأيدى الى الرف حيث نرقد وتنظر العين الى العنوان وبعض الصفحات ، ولكن سرعان ما يعاد الواحد منا

الى مكانه ، ما عدا ولدا واحدا طالبا فى الجامعة ، هو ابن أخت صاحب الشقة ، ولكنه بخلاف خاله يحب القراءة ، عندما يأتى الى هنا تكون عينه دائما متجهة الى الرف حيث نرقد ، وكثيرا ما أخذنى بين يديه وانشغل بقراءتى عن كل شىء ، قال مرة لصاحبنا :

ـ يا خالى أنا أبغى هذا الكتاب .

وكنت فى يده ولكن الخال رد عليه قائلا :

ـ اقرأ هنا ما شئت ، ولا تأخذ شيئا معك .

ـ أعيده بعد أسبوع واحد ..

ـ لا ، كما قلت لك . اننى احتفظ به لأنه مهدى الى بخط المؤلف . واذا أنت أخذته فلن تعيده .. كما حدث فى كتب أخرى ..

صاحبى هذا صحفى محرر فى احدى الصحف اليومية . وقد حرص المؤلف على اهدائى اليه ليكتب عنى كلمة .. وبما أن هذا الصحفى ـ مثل كثير غيره من الصحفيين ـ ليس عنده وقت لقراءة الكتب ، بل يكتفى بتصفح الجرائد والمجلات كما ينشغل بالكتابة عن القراءة .. فقد نظر الى فهرسى وجشم نفسه قراءة المقدمة ثم كتب عنى كلمة فى ركن الثقافة ، مستمدا ما كتبه من المقدمة والفهرس .

الولد الطالب بالجامعة « سوسة » القراءة ، شغف بى حبا ولا فخر .. كان ينظر الى من طرف خفى ، أعرف هـذه النظرة : خائنة الأعين .. فى محتوياتى كلام عنها وعن مثيلاتها ، اكتسبت معرفة من هذه المحتويات .

يريد أن يأخذنى ، ويتردد : أتكون هـذه سرقة ؟ أما أنا شخصيا فلا مانع عندى بل انى أرحب ، وهو يقول فى نفسه : ان خالى لا يقرأ فى هـذا الكتاب وأنا أريد أن اقرأه ، فأنا أحق به ، أليس هذا مبررا ؟

وبرغم ضيقى بهذا السجن وارتياحى الى أن ينقذنى منه ، وجدت نفسى فجأة أصيح بصوت مبحوح : لا ..

فزع الزميل المجاور لى قائلا :

ـ ماذا ؟ مالك يا كتاب « اللآلىء فى البحر الزاخر » ؟
لم أرد عليه وقلت فى نفسى وقد هدأت :

ـ وأنا مالى ..

تابع جارى الزميل على الرف :

ـ مالك ؟ ليس بعضك على بعض .. أجبت مع شىء من التحفظ :

ـ ان شيئا سيقع ..

ـ خير ان شاء الله ؟

ـ خير .. نعم خير .. افراج ..

ـ افراج ؟ لا أفهم .

ـ لا يهم ، ربما فهمت .

انتهز الشاب فرصة انهماك الجميع فى مشاهدة ما جذبهم فى التليفزيون والظلام الذى تبدد الشاشة بعضـــه ، ودلف الى ناحيتى على بصيص الشاشة وفى لمح البصر خطفنى ودسنى فى حقيبة صغيرة معه ..

وافرحتاه .. عما قليل سأشـــم الهواء الطلق .. سأكون بحق : كتاب اللآلىء فى البحر الزاخر ..

غيبوبة حلوة

كل يوم يصحو مبكرا عند الفجر ، وينظر من خلال زجاج النافذة الى نوافذ المستشفى القريب فيبعث ذلك فى نفسه مشاعر متباينة .. يتخيل وراءها خيالات متباينة .. يا ترى كيف حال المرضى هناك ؟ منهم من لايزال يغط فى نومه ، ومن استيقظ بدافع الألم ومن لم يتم ليله ، ومن اعتاد مثله على الاستيقاظ مبكرا ... الخ .

عالم عجيب مسكين .. يتخيله فيشعر بالراحة فى معظم الأحيان ، وأحيانا يتذكر فيأسى ، يتذكر أشياء كثيرة رآها وعاناها فى المستشفيات ، وتمتع ببعضها ولا يزال كذلك كلما تذكرها .

ومن عجيب مشاعره أنه يحب الحياة ويتشبث بها ، ويذهب عنه ملل رتابتها ، عندما يكون مريضا . يشعر بالأمل فى مباهجها بعد الشفاء .. وما مباهجها عندئذ الا أن يغدو ويروح .. يأكل

الطعـــام ويمشى فى الأســـواق ، يعطى ويأخـــذ ، يفرح ويأسى ..... الخ .

ولكن حدث مرة أن كان مريضا فى المستشفى وهجم عليه الاشمئزاز من كل شيء ، وداخله اليأس اذ أظلم فى وجهه كل شيء ، ولم يكفــه ما يعانيـــه من آلام المرض حتى جاءته تلك الممرضة الشرسة .. قبيحة المنظر ، دميمة الوجه ، يدل تضخم جسمها فى أماكن غير متناسبة على أنها تأكل وترعى كما يرعى الجاموس . ولابد أنها تجور على طعام المرضى .

دلت التجارب على أن المرأة الدميمة الخلق تكون غالبا دميمة الخلق ، يعلل هـــذا بأن الناس ينظرون اليها فلا يستريحون لمنظرها ، فيعبسون فى وجهها ، فتستقر فى نفسها كراهية الناس لأنهم يكرهونها .

وعلى عكس ذلك المرأة الجميلة الصبوح المشرقة ، لا ترى الناس الا مشرقين فى وجهها فتحبهم وتبادلهم اشراقا باشراق .

احتـــار فى أمره .. مـــاذا يفعـــل ازاء تلك الممرضـــة المبرحة .. ؟ اذا احتاج الى شيء يناديها فلا تتحرك ، واذا تحركت فعلى دفعات بطيئة .. ويا ويل نفسه اذا استدارت ورأى أحد ردفيها يعلو ، والآخر يهبط ، تقول له فى شـــبه تأنيب : ماذا تريد ؟ الا تنتهى لك طلبات ؟ اذا كان راغبا فى شربة ماء انسدت نفسه وذهب عنه العطش مع جفاف الريق .

على أن مسألة القبول فى « الوجه الصبوح » قد تنعكس على سبيل الشذوذ ولكل قاعدة شواذ ، فتكون الدميمة خفيفة الظل لما يكون فى طبعها من الرقة والانسانية المهذبة ، وعلى العكس قد تكون الجميلة ثقيلة الظل •• والمثل العامى يقول : « يا وحشة كونى نغشة » أى كونى ظريفة مداعبة ضحوكا بحيث تعوضين ما فاتك من جمال بحسن الكلام وحلاوة اللسان •

احتار صاحبنا المريض فى أمر تلك الممرضة ولم تسعفه الحيلة فى التخلص منها فاستشعر الألم النفسى ، مضافا الى الألم الجسمى ، وتضاءل أمله فى الحياة وضعف تشبثه بها •• وجعلت الغيبوبة تنتابه فى فترات قصيرة أولا ، ثم تزداد شيئا فشيئا حتى طالت فى أحدى المرات ، فانزعج أهله الذين يزورونه يوميا ، وأحضروا له طبيبا مختصا فى الامراض العصبية وجعل هذا يعالجه بمختلف الوسائل •

لايزال يذكر حوارا جرى بينه وبين الطبيب ، وهو بين اليقظة والغيبوبة لم يكن قد أفاق تماما والطبيب يجسه ويمسك يده متلطفا قائلا :

ـ أفق يا أستاذ أحمد ، أفق •

ـ لماذا تريدنى أن أعيش ؟

ـ أهلك فى حاجة اليك •

ـ أنا لا أريد ..

ـ الحياة حلوة يا أستاذ أحمد .

ـ لا أجد فيها الا المرارة .

ـ لا ، لا ، يا أستاذ أحمد .

قال الطبيب ذلك وهو يداعب خده وذقنه .. ثم قال وهو يلتفت الى الحاضرين من أهل المريض كأنه ينبههم الى ما فعله وما يستحق عليه الأجر الكبير :

ـ هذا أنت يا أستاذ أحمد قد صرت على ما يرام .

قال أحمد لأخيه المهتم به :

ـ انقلنى من هنا ، لا أريد أن أرى هذه المرأة ... يقصد الممرضة .

ـ أين تريد ؟

ـ انقلنى الى أى مكان ، الى الدرجة الأولى ، نعم سيكون أجرها مرتفعا . ولكن قاطعه الشقيق قائلا :

ـ لا بأس يا أخى ، كل شىء يهون فى سبيل راحتك وشفائك .

ونقلوه الى قسم الدرجة الأولى ، ولم يكن هناك مكان .

خال ، وازاء الالحاح وضعوا له سريرا اضافيا فى حجرة مع مريض آخر : رجل مسن طيب ، وقبل ذلك ٠

استقبلته هناك ممرضة رقيقة حسناء ذات وجه سمح يجود بالبشاشة ، قال فى نفسه أول ما رآها : الحمد لله لقد عوضنى الله خيرا ، يظهر انهم يضعون تلك الممرضة الشرسة فى الدرجة الثانية لكى (تطفش) الزبائن الى الدرجة الأولى ليستفيدوا من ذلك فرق الأجر ، عادت اليه طمأنينته واستراحت نفسه وانتعشت معنويته ، التقط اسمها « فاطمة » من فم جاره وهو يناديها ويحادثها ٠

وجد فكره يقرن فاطمة الرقيقة الى تلك الممرضة الشرسة ، حفر اسم فاطمة فى ذهنه ، وصار له فى سمعه وقع جميل ، على حين رفضت ذاكرته اسم تلك الممرضة التى « لا تسمى » كما يقال فى الحديث العادى عمن يبغضه المتحدث ٠

جاءت اليه فاطمة تصلح وضعه فى الفراش ، تلمسه فى خلال ذلك برقة وعلى شفتيها ابتسامة لم ير أعذب منها ٠

اقترب من تمام الشفاء ، لم تأته غيبوبة ، وبالتالى لم يحتج الى طبيب الامراض العصبية ، وأراد أخوه فى احدى الزيارات أن يستشف حالته النفسية ، قال له :

ــ كيف حالك الآن يا أحمد ؟

ـ بخير والحمد لله •

ودخلت فاطمة فى هذه اللحظة ، فلحظ الأخ على وجه أخيه الاشراق لقدومها وأعطته الحقنة وكأنما أعطته حلوى ، وتبسم لها شاكرا ، ثم انصرفت • قال الأخ :

ـ لم تعد تنتابك الغيبوبة ؟

لم يسمع جوابا من أخيه ، لأنه كان شارد النظرات ، كأن ليس معه أحد يكلمه ••

ـ أين ذهب عقلك ؟

ـ لا ، لم يذهب ، انى معك ، ماذا قلت ؟

ـ ان الغيبوبة هذه المرة من نوع آخر •• غيبوبة حلوة ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لاشىء ، المهم صحتك ، متى تخرج من المستشفى ؟

ـ عندما يقرر الطبيب •

قال ذلك وقد تنبه على حقيقة كانت بعيدة عن وعيه • هل سيخرج من هنا ؟ طبعا سيخرج •• سيخرج مهما طال الوقت وفاطمة ، ؟ ألن يراها بعد ؟ كيف يصبر على فراقها ؟ وانتبه لنفسه فسأل نفسه : أتحبها ؟ وأجاب : ولم لا ؟ قال له الرجل الكبير المريض الذى يقاسمه الغرفة وقد انفردا يسمران :

ـ لا تنشغل بها يا ولدى ...

ـ من هى ؟

ـ فاطمة .. أتظن أن ولعك بها يخفى على .. ؟

وأضـــاف :

ـ ان هى الا أيام وتخرج من هنا ويذهب كل الى حاله ،

ـ لا أريد أن أذهب وأدعها .

ضحك المسن وهو يقول :

أتأخذها معك أم تبقى هنا الى الأبد ؟

ـ ما رأيك ؟

ـ فى مـــاذا ؟

ـ أن أفاتحها فى الزواج ؟

ـ يبدو لى أنك جاد فى حبها ...

ـ أليست جديرة بالحب ؟

ـ اسمع يا ســـيد أحمد ، انها تؤدى عملها كممرضـــة ؛ تؤديه على أحسن وجه معك ومعى ومع كل مريض . ويبدو انها تحب عملها وتنهمك فيه . ويظن الواحد منا ـ نحن المرضى الذين تعاملهم برقة ـ يظن انها تحبه وتؤثره وتخصه .

كان أحمد شاردا لا يعى ما يقول الشيخ .

ـ الحب شيء والزواج يا ولدى شيء آخر ٠

ـ أنـا أريد هذا الشيء الآخر ٠٠٠

ـ قد أراده مريض آخر وناله

ـ ماذا تقول ؟ ماذا تعنى ؟

ـ لا تؤاخذنى يا ولدى انى أعلم ما لا تعلم ٠

ـ ماذا تعلم ؟ وأنى لك ؟

ـ علمت منها هى ٠٠ حدثتنى ، أفضت الى كوالد ٠

شده أحمد وأصغى يريد ان يقف على ما عند الشيخ ، قال الشيخ :

فتن بها ذلك المريض ، وكان من أصحاب الملايين ، أغراها بمعسول كلامه ووعوده حتى قبلت أن تتزوجه ولمـا خرج من المستشفى دخلا فى حياة زوجية لم تكن للأسف سعيدة ، انطفأت النشوة الأولى من جانبه ، رأى انشغالها عنه بعملها ، ولم ير العناية التى كان ينشدها ، والتى كانت تبذلها له مريضـا وهى تبذلها لكل مريض بدافع حبهـا لفن التمريض الذى حذقته فى المعهد وكرست جهدها عليه ٠

ومن جانبها علمت انه متزوج وله أولاد ، ولم يقل لها ذلك ، رأت انه خدعها فكرهته ، وانتهى الأمر بالطلاق ٠ اسمع

يا ولدى خذها منى نصيحة : نصيحة رجل كبير السن عركته الحياة أنها ممرضة تختلف عنها زوجة .

ــ ولكنى أحببتها ومستعد أن آخذها على علاتها .

ــ أنت تقول هذا لأنك فى سكرة الحب ... وعندما تفيق ستعرف الحقيقة .

ــ لن أفيق .

قال هذا ثم تذكر ما قاله أخوه : انك فى غيبوبة حلوة ...

وقال فى نفسه : سكرة الحب أو غيبوبة حلوة .. فليكن أى شىء .. أريدها والسلام .

جاءت فاطمة ، وأعطت أحمد الحقنة ، وابتسمت وهى تقول له : بالشفاء ، تلك الابتسامة الدائمة الفاتنة ، ليته يستطيع أن يقبل هذا الفم الجميل .. كيف يستمع الى نصح ذلك الرجل المسن المخرف الذى برد قلبه ؟ قال لها مستجمعا شجاعته :

ــ فاطمة .

ــ نعم يا أستاذ أحمد .

ــ لا تقولى أستاذ ، أنا أحبك وأريد أن أتزوجك .

فوجئت ، تذكرت ماضيا آلمها ، سكتت ، قال :

ــ أفهم من سكوتك انك موافقة ؟

غابت الابتسامة من وجهها وهى تقول :

ـ لا .

ـ لماذا يا فاطمة ؟ أنا أحبك .

ـ كلكم تقولون هذا ، وأنا لا أريد أن أكرر التجربة .

ـ أية تجربة ؟

ـ اسأل الحاج ...

وأشارت الى صاحبه فى الحجرة ، وأضافت :

ـ يبدو نائما ، يتظاهر بالنوم ...

فتح الحاج عينيه ، وقال ضاحكا :

ـ ألم أقل لك ؟

أما هى فقد ظلت على عبوسها الطارىء وانسحبت .

***

والآن ينظر من النافذة الزجاجية عند الفجر الى نوافذ المستشفى الزجاجية المضيئة ويتخيل ما وراءها ومن وراءها ... ويود أن يكون هو هناك ولو مريضا .. وأن تكون هى هناك أيضا ممرضة . ما أجمل ذكراها !

لن ينساها أبدا ، ولن ينسى فضلها اذ لم تتزوجه ، فبقيت فى أعماقه طيفا حبيبا ، ومن يدرى كيف كانت تكون لو تزوجها ؟

رغيف القمح

قال لى واحد من قريتنا :

ـ لم يعد أحد فى البلد يخبز فى المنزل الا القليل فالناس هناك يشترون الخبز جاهزا من السوق أو من « الطابونة » كما يسمون المخبز •

ـ عجبا •.و « البتاو » ؟

ـ تعنى خبز الذرة ؟ لقد أصبح فى خبر كان •

خبر كان هـذا يظهر أنه يبتلع كثيرا من الأشياء حتى انه لا يمتلىء •

سكت قليلا وأنا أتذكر ذلك الرغيف الذى كنت أتذوقـه فى القرية وأقارنه آسفا بخبز السوق الذى يقدم لى الآن كلما ذهبت الى القرية فلا أجد فرقا بينه وبين ما نأكله فى المدينـة ، كله علف آدمى ، مهما تحسن بضغط الحـكومة على أصحاب

المخابز واستيراد مخابز آلية ونصف آلية . كل شيء مختلف جدا عن ذلك الرغيف القديم ذى الطعم الشهى .

كان البعض فى القرية يتخذونه أداما لخبز الذرة . فهذا لا يستساغ وحده (حاف) كما يقال : « عيش قمح » فتتحلب الأشداق . ويدل ذلك على الغنى والثراء اذ كان المتداول هو « البتاو » المصنوع من الذرة .

كنا صغارا وقد خبزنا أرغفة من القمح وأخذت واحدا منها . اختلسته وخرجت ألعب مع الأولاد . وأنا أقضم من الرغيف متلذذا متفاخرا فى صمت وقال لى أحد الأولاد :

ـ من أين لك هذا ؟

ـ أمى خبزته لأبى لأنه مريض .

ـ أعطنى لقمة .

قلت متعاظما :

ـ لا

قال ضارعا :

ـ اعطنى وعندما يمرض أبى أعطيك .

انتبهت من سرحانى الى محدثى وهو يقول :

ـ الناس الآن تمدنوا .

ليتهم ما تمدنوا .

ـ لمـاذا يا أخى ؟ لقد أراحهم التمدن من كثير من العناء ،

ـ وحرمهم من كثير •

ـ كيف ذلك ؟ انهم الآن يتناولون الخبز جاهزا بدون أى تعب ٠ كانوا ينقون حبوب القمح أو الذرة مما يختلط بها من صغار الحصى وغيرها ، ثم يذهبون بها الى « ماكينة الطحين » ويعودون بها طحينا ينخلونه ثم يعجنونه بعد أن يعدوا الخميرة ويضعوها فى العجين ، وتأخذ المرأة فى العجن و « اللت » مدة وتبذل فى ذلك جهدا يشبه جهد التمرينات الرياضية ثم تترك العجين حتى يختمر ثم يقرصونه أى يجعلونه أقراصا وبعد ذلك يحمى الفرن حتى تصل درجة حرارته الى مستوى معين يعرفونه بالتجربة لا بمقياس الحرارة ٠ ما وصل محدثى الى هنا حتى تركته يتكلم وأنـا غائب عنه فى تذكر « سعدية » التى ولدت ابان الحركة الوطنية التى قادها سعد زغلول ، فأسموها سعدية نسبة الى سعد كما سميت أنـا زغلول •

تذكرت سعدية وهى جالسة أمام الفرن وقد شـمرت عن ساعديها القمحيين كسائر بشرتها القمحية اللون المـائل الى لون الذهب وآه من حركتها الرشيقة وهى تتناول اللوح الخشبى وقد رصت عليه الأرغفة عجينا طريا تقذفه فى التنور بيد سريعة وبحركة خاطفة وقوامها الرشيق يهتز كأنها ترقص جالسة ثم تخرج الخبز ناضجا تفوح رائحته وتملأ الخياشيم ، ويتصاعد منه البخار •

أكون أنـــا فى أثناء ذلك هيمان • تأسرنى رائحة الخبز الشهية ، ولا أخفى عنك أن سعدية هى التى كانت تأسرنى • وفى خلال ذلك تصبح هى فى لونها القمحى مثل الرغيف •

بعد ذلك بسنتين رحلت الى المدينة وعشت فيها زمنا كنت فيه أرى نساءها وعلى وجوههن المساحيق مصـبوغة شـفاهن بالقلم الأحمر الذى عرفت اسمه الأفرنجى من أفواه أهل المدينة اذ يقولون عنه « روج » •

كنت أتذكر سعدية وأقارنها بهؤلاء النسوة • فرق كبير بين حسنها الطبيعى الآسر وبين الجمال « المجلوب بتطرية » كمـا يقـال •

وكنت عند الفرن ، أصعد فى عمرى نحو المراهقة والنساء يترددن فى أمرى هل أنـا لا ازال صبيا أم صرت رجلا يتحرجن منه ؟ وأنـا وان كنت أميل الى اصطنـاع ما يجعلنى فى عداد الرجال الا أننى فى أعماق نفسى أميل الى أن أكون ولدا صغيرا يغض النساء عن وجوده اذا كانت سعدية بينهن • وأنـا « ألبد » بجوار الفرن وهى تخبز ، واسمع أبى ينادينى وهو جالس على المصطبة فى مقدمة الدار :

ـ زغلول • ولد يا زغلول •

ـ نعـم يا أبى •

ــ تعال هنا . لمــاذا أنت جالس مع النسوان ؟ لقد كبرت ولم تعد طفلا .

وأجلس الى جواره على المصطبة ثم يروح يحدثنى كأنه يريد أن يشغلنى بأى شىء ...

حتى يوم الجمعــة الذى أستريح فيه من الذهــاب الى « الكتاب » لا أجد الراحة ، راحة نفسى الحقيقية هنــاك أمام الفرن .

آه يا أبى .. انــك لا تعلم كم هى جميــلة مثــل الرغيف القمحى . وغــيرها من النساء والبنــات مثل « البتاو » انك لا تعلم أنى أحبها . ولو علمت لهالك الأمر والله يعلم ماذا كنت تصنع بى ؟

كلمة « الحب » عند أبى تساوى كلمة « الكفر » أو على الأقل مثل كلمة « الفساد » ومن كان مثلى يحب فهو « ولد فاســد » .

أيقظنى محدثى من الذهول وهو يقول :

ــ ماذا ؟ أنى أتكلم وكأنك لا تسمع .

ــ لا . لاشىء انى مصغ اليك .

ــ يبدو لى أن هناك شيئا يشغل فكرك .

ـ هى فقط مسألة الرغيف .

ـ رغيف القمح ألم تكن تحدثنى عن رغيف القمح ؟

ـ لم نصـل فى حديثنا الى الرغيف لاتزال تتحدث عن المقدمات من عجن واحماء للفرن .. الخ .

قلت وأنـا ذاهل :

ـ وسعدية تخبز ..

ـ من سعدية هذه ؟

ـ واحدة لا تعرفها . ذلك كان فى زمن مضى .

الواقع أن محدثى بدأ يثقل على ، اذ يخرجنى من ذكرياتى الحلوة . ويأبى الا أن « يلت ويعجن » .

سعديه كانت قمحيـة اللون مثل ذلك الرغيف وكلاهمـا لا ينسى . ولكنى أتساءل فى نفسى : هل عندما يمضى الزمن بشىء كنا نحبـه يصبح أكثر قيمة فى نظرنا ؟ قـد يكون ذلك بالنسبة للرغيف أو أى شىء يؤكل ، أما سعدية طعام الروح فهى هى بل على العكس قـد ينقص مضى الزمن من وقعهـا على مشاعرى . ولكنى أتذكرها عندما أرى الشفاه المحمرة والوجوه المصبوغة والشعر المصنوع . يخيل الى أن آخذ الواحدة من

هؤلاء « المصبوغات » وأنقعها فى ماء ، لكى تظهر على حقيقتها .

كنا نبل الرغيف القديم اذا جف ، ونأكله لذيذا كما لو كان خارجا من الفرن ، أما رغيف اليوم فاذا بللته فلن يصلح الا علفا للدجــاج ؟

ذلك « أصله فيه » وهذا لا أصل له .

ولاشك فى أن سعدية كان « أصلها فيها » يزيدها المــاء رونقا ونضارة وقديما قيل : أطيب الطيب المــاء .

حب وحب

عجبا لهذه الأتان لم تكن هذا .. ماذا جرى لها ؟ كان ذاهبا الى أمينة وهو يمتطى هذه الأتان فأمينة حبيبة قلبه وبنت خالته فى قرية أخرى غير قريتهم ولم تكن السيارات قد جرت بعد بين تلك القرى منذ أربعين عاما . وقد انتهز هذه الفرصة التى كلف فيها من أبيه بأمر من الأمور يقتضى ذهابه الى بلدة أمينة اذ فرح منتهى الفرح — فى نفسه — لأنه سيرى أمينة رفيقة فؤاده فطالما لعبا معا وهما طفلان اذ كان هو وأمه يقضيان أياما عند خالته ، أو عكس ذلك حين كانت هى وأمها تقضيان أياما عندهم .

لا ينسى يوما ركبت أمينة فيه خلفه على حمار وخالته وحدها على حمار آخر ؛ كانتا عائدتين الى بلدتهما وهو فى رفقتهما كى يعود بالحمارين ، كان لمسها لظهره رقيقا لذيذا

لا ينسى ... كانوا فى هذا الطريق الذى يسلكه الآن على أتانه البليدة أو المتبلدة لا يعلم لمـاذا ..

يوم ذاك انطوت المسافـة بين القريتين بسرعـة لم يكن يريدها .. أما الآن فقد طالت مع بطء هذه الأتان ومع شوقه الى الوصـول .

تجربته مع الحمـير ليست جديدة فهى وسيلته الوحيـدة للانتقال ، اما بين المنزل والحقل واما بين قريته وقرية المحبوبة ما أسعده يوم يقولون له : اذهب يا محمود الى خالتك ، وتحمله أمه سلامها وكلاما اليها ، وهو لا يعى كلام أمه بقدر ما يعى كلام قلبه الى أمينة أو ربما لا يقول لها باللسان والقلب مفعم بما يقال وما تشى به العين والحركات .

عجبا لهذه الأتان لم تكن تمشى هـكذا متثاقلة فمـاذا جرى لها ؟

لقد أعددت لها هذه العصا : فرعا من شجرة الرمان نزعته منها وأصلحته بالمدية ولكنهـا لا تستجيب للضرب فهى تمشى كأنها تنتزع أرجلها من الوحل ، آه ... هـذا السور الطينى الذى أقامه الزراع على حافة الطريق كى يحمى الزرع والثمار من أيدى العابرين وغرزوا فوقه جريد النخـل المملوء بالنتوءات المدببة كالابر ، فلأنزع منها واحدة أنخس بها الأتان .. لم تكن تحتاج الى هـذا النخس فماذا جرى لها ؟ مالى أنـا وما جرى

لها ؟ ليس فى فـكرى الا أمينـة فلأنخس حتى تسرع اليها ، لا بأس ، لقد تقدمت قليـلا ، هـذا رجل قادم فلألق عليـه السـلام ٠

ـ السلام عليكم ٠

ـ عليكم السلام يا ابنى ورحمة الله وبركاته ٠

لمـاذا يقول لى : يا ابنى ؟ هل يرانى صغيرا ؟ ألا يرى شاربى قد خط وقد لبست الجلباب الصـوفى والحذاء الأصفر تحته جورب أصفر مثله ٠ عندما ترانى أمينة فى هذه « الوجاهة » أعظم فى عينها ٠٠ وكذلك خالتى وزوجها والد أمينة ٠

التقطت أذناى مرة حديث زوج خالتى اليها قال : انهما ـ أمينة وأنـا ـ كبرا كما كبرنا ، ولكن الذى لم استرح اليه بل افزعنى قوله :

ـ يجب حجبها عنه ٠

قالت خالتى :

ـ يا رجل ، انهما لا يزالان صغيرين ٠

ـ صغيرين ٠٠ صغيرين ٠٠ ثم أضافت خالتى :

ـ بالمناسبة ٠٠ أختى كانت كلمتنى فى شأن زواجهما ٠

ـ أما قلت انهما صغيران ؟

ـ على كل حال « لندع كل شيء الى وقته » •

أشعر بأشعة الشمس الحامية ، وفى الفؤاد نار الوجد •• والطريق طويل وهـذه الأتان تكاد تقف لقد تكسرت (السلاية) التى كنت أنخس بها فلأنزع واحدة سليمة لأعاود النخس • لو كانت أمينة راكبة معى •• وراء ظهرى ما أحسست ببطء الوقت ••

لقد مللت ركوب الحمير ، ولو كان أبى يشترى لنا فرسا كنت أذهب بها الى هنـاك وترانى آمينة فارسا ••

وامتد به ذلك الخاطر الى خاطر آخر : أن يخطف أمينـة على ظهر الفرس ويعدو بها كأى فارس شجاع يأبى آهل حبيبته زواجه بها •

ولكن لا ، لا داعى لهذا ، فما أظن زوج خالتى سيأبى زواجى منها •

أبوه يقول ان الفرس غالية الثمن وتتكلف كثيرا فى علفها •

ـ ولكن يا أبى انها ستلد ونبيع المهر غاليا يعوض ثمنه تلك التكاليف ، وبالمناسبة هذه الأتان ولدت حديثا وابنها فى البيت ، ولكن فرق كبير بين الجحش والمهر •

مرة زارهم أقارب من « البندر » وكان معهم أولاد ، أولاد البندر يحبون ركوب الحمير وكان ذلك من أسـباب متعتهم فى القرية ، أما نحن فطالمـا ركبناها حتى مللنا ركوبها .

الحمد لله ، قد أشرفنا على بلدة أمينة ، وهذه معالمها قد بدت من بعيد ما أجملها ! عما قريب أكون فيها ، وأرى أمينة .. ليت أباها لا يكون هناك لننطلق فى مرحنا غير عابئين بأحد فى هذه الدنيا .

***

بعد يومين مضيا كأنهمـا ساعتان استعد محمود للرحيل والعودة الى قريته كأنه كان فى حلم ممتع لذيذ وصحا منه . قالت له خالته :

ــ مع السلامة يا محمود ، سلم على والدتك .

وقـالت أمينـة :

ــ سلم لى على خالتى يا محمود .

ما أحلى اسمى تنطق به شفتاك يا حبة الفؤاد ..

وقال زوج الخالة :

ــ نراك بخير ، سلم على والدك .

أطرق وقلبه ينظر الى أمينة كأنه يريد أن يقول لها :

ــ لا أريد أن أفارقك ، أريد أن تكونى الى جانبى دائما .

وامتطى الأتان ، وما كاد يحثها حتى أسرعت متجهة الى الجنوب .. حيث تقع قرية محمود .

عجبا لهذه الأتان لم تكن سريعة المشى هكذا ونحن قادمان .. هذه العصا فرع الرمان فى يدى لم أكد أشير اليها ، انها تعدو عدوا .

شك فى أن تكون هذه أتانه ، هل حدث غلط ؟ أتكون هذه غيرها ؟ أتكون هذه أحضرت له لأنها تشبه تلك ؟ نزل وتأملها ، انها هى ولا غلط .

وشرع يفكر بطريقة مختلفة .. مالها هذه الأتان ؟ ما أحلى ركوبها وما أحلى الأمانى وأنا فوق ظهرها .. تعدو بى هذا العدو الخفيف ، فليوفر أبى ثمن الفرس فلا حاجة بنا اليها ، اننا سنحتاج الى المهر مهر أمينة أولى من مهر الفرس .

قال أبى ان عرسى سيكون أعظم عرس سيُغنى فيه « الصييت » وسنحضر فيه فرقة الموسيقى من البندر وستعزف هذه الموسيقى للخيل : خيل المعزومين ، فترقص على نغماتها الخيل ، ترقص .. ما كنت أصدق ذلك قبل أن أراه بعينى فى عرس عزوز ابن العمدة ، ولكن متى يكون عرسى ؟ قال أبى

فى موسم القطن فى السنة القادمة ، نحن الآن فى أعقاب الموسم الحالى للقطن ، يعنى أن مدة الانتظار سنة ، ما أطول هـذه السـنة ..

تذكر محمود ـ بمناسـبة العمدة ـ أن أمه قـالت مرة انه ـ العمدة ـ خطبها وهى بنت ولكن القسمة والنصيب ..

ليتها ما قالت .. سـمعها أبى ، وكانت ليلة مثل الحبر الأسـود .

لمـاذا يا أمى تقولين هـذا الكلام ؟ أبى أعظم رجـل فى البلد ، كونى عاقلة مثل أمينة . .. أمينة الصغيرة لا تقول هذا الكلام أيتها المرأة الكبيرة .

لو كان أبى يملك عشرة أفدنة « نصاب العمدية » لكان هو العمدة ، انه يملك الآن تسعة أفدنـة ، فلم يبق بينـه وبين « العمدية » الا فدان واحد وربك كريم عندئذ تقول أمينة بفخر : انها ستتزوج ابن العمدة ولكنها تخجل أن تقول أنها ستتزوج... آه من حياء العذارى ..

كانت الأتـان تسرع فى العودة على خـلاف ما كانت فى الذهاب .. فما الذى غيرها ؟ هل كانت تحلم مثله تلك الأحلام اللذيذة وما عسى أن تحلم به وما هى الا واحدة من الحمير ؟

ولكن أمرها عجيب .. فى الذهاب وفى الاياب . هذا كفر

الشيخ عليش وبعده بقليل بلدنا ، اقتربنا من البلد وما يهمنى الآن ان تكون الأتان بطيئة أو سريعة .

ما ان وصل محمود الى باب الدار ونزل حتى رأى الأتان تسرع الى الداخل كأنها تبحث عن شىء ، فتابعها حتى رآهـا تقف متسمرة والجحش الصغير يدخل بين أرجلها ويرفع فمه الى ضرعها ويرضـع .. وبعد برهة يكف عن الرضاع وينطح بطن أمه برأسه كأنه يداعبها ثم يخرج من تحتها ويقفزها هنا وهنا ثم يعود الى ثديها ويلقمه وهى تلوى رقبتها نحوه وتشجعه ..

ـ آه .. هـذا هو السبب ، بطل العجب ، لكن لمـاذا لم تقولى ؟

ـ وهنا يقهقه صوت من داخل محمود كأنه يسخر منه :

ـ كنت مشغول الفكر بأمينة .. ألا تعرف ؟

ـ وهى أيضا مشغولة الفكر .

ـ بمـاذا ؟

ـ بوليدها الجحش .

الحصـــان

أريد أن أتحدث مع أحد .. أى أحد .. حديثا سلميا .

فقد خرجت من المنزل ضائقا بالحـديث غير السلمى مع زوجتى .. ضقت ذرعـا بطلباتها التى لا تنتهى ولهجتهـا التى تشـبه التأنيب ولو لم يكن هنـاك ما يدعـو الى التأنيب ، مما يدفعنى الى معاملتها بالمثل ، وتكون النتيجة « العكننة » والأولاد سـافروا الى بـلاد بعيدة وتركونا فى خواء ما بعده خواء .. لا صـديق لى فى هـذا الحى الذى نسـكن فيه ، أصدقائى بعيدون يقتضى اللقاء بهم فى أماكنهم البعيدة معاناة المواصـلات ، فلا سـيارة أجرة تقف ولا مكان فى سيارة عامة (أوتوبيس) اذا وقف ولم « يحرق » المحطة ..

وحتى لو تيسرت سيارات الأجرة ووقفت لنا عندما نشير اليها ونضرع الى سائقها ، فمن أين لنا ما ندفعه لها ، ولا سيما

أن سائقيها لا يستعملون العداد فان أعملوه لم يكتفوا بما يكتب ..

واذا تجشمت ذلك وذهبت الى النادى أجده مقفرا .. ونادينا يشغل شقة فى عمارة تشبه شقتنا ..

ليس لى عمل أتحدث فيه مع زملاء أو أتسلى بمزاولته ، فقد أحالونى الى المعاش وأسلمونى الى الضياع .. قالوا لى : أذهب لتستريح بعد العمر الطويل الذى قضيته فى الخدمة وخذ هذا الوسام جزاء لك ، فرحت بنشر اسمى فى الصحف مقرونا بنيل الوسام ، ثم ماذا ؟ لم أسترح وأين أجد الراحة ؟ الذين يضعون القوانين لم يجربوا هذه « الراحة » لأنهم لا يزالون فى الخدمة ..

وارتمى بى الحال حتى انى لا أجد من أكلمه وأقطع معه الوقت الذى شبهوه بالسيف ، فهل أستسلم للسيف يقطعنى ؟

كنت فى العمل أتكلم مع زملائى أكثر مما نعمل .. كنا نتوقف عن العمل لأجل أن « ندردش » والآن فقدت العمل بالتقاعد وفقدت من أتكلم معه ، وحق على القول « ما عاش من كان فى المعاش » ..

لابد من الجلوس فى القهوة ، وهى تجذبنى عندما أرى الناس جالسين بها وخاصة على الرصيف أمامها فى الهواء الطلق

وبعيدا عن « دوشة الدماغ » التى يحدثها الراديو .

ولكن لما أجلس وأفرغ أو أشبع من تأمل الرائحين والغادين والرائحات والغاديات أتلفت حولى لعلى أجد من أتحدث معه فلا أجد الا « عبد الظاهر » وهو ضعيف السمع يقتضى الحديث معه رفع الصوت ، وهو محال الى المعاش مثلى ، أنظر اليه كأنما استنجد به من قرصة الجوع الى الكلام ..

تذكرت « حصان تشيكوف » الذى أفضى اليه صاحبه الحوذى بآلامه نفقد ولده ، وقد نهره وانشغل عنه كل من ركب معه فى العربة ، وكان كلما شرع فى الحديث عن مأساة ولده أعرضوا عنه ولم يصغوا اليه .

وأخيرا وصل الى الاسطبل ، ففك الحصان وربت عليه فى حنان ، ومسح دموعه وحكى له ما استعصى عليه ان يحكيه للناس .

قلت : آه فليكن عبد الظاهر حصانى .. لم أكن فاقدا ولا ثاكلا ، ولم أتحدث الى أحد فأعرض عنى ، كل ما فى الأمر انى أشعر بالحاجة الى الكلام ، ولا أجد أمامى الا عبد الظاهر فلأقل له .. أقول له ماذا ؟ كان قد اشترى الملوخية الخضراء ووضعها فى سلة الى جانبه حتى يعود الى امرأته التى لابد تنتظره لتطبخ الملوخية قلت له لا تسلى بأى كلام :

ـ الملوخيــة بكم ؟

وعلى عادتــه شرع فى الشــكوى من الغــلاء وتضخيم الأسعار .. قال رافعا صوته فى شبه صراخ :

ـ كيلو الملوخية بخمسين قرشا .. الملوخيــة التى كانت عشرة أرطال بقرش ولم أسأله عن الجوافة ، ولكنه انطلق يقول :

ـ انجوافة يا أستاذ محمود ..

ـ اسمع ، ليس اسمى محمود ، أنــا اسمى محمد .

ـ محمود مثل محمد .

ـ لكن أنــا اسمى محمد فكيف تنادينى بمحمود ؟

ـ لا أهميــة للاسم ...

ـ كيف لا أهمية للاسم ؟ أنت اسمك عبد الظاهر فهل اخاطبك : يا عبد الرحمن .

ـ دعنا من هذا ، الجوافة يا أستاذ ..

ـ محمــد

ـ صار الكيلو بخمسين قرشا ... الا تذكر زمانا كانت فيه الأقة بقرش .

ـ انها الآن فى أول موسمها وسترخص فيما بعد .

ـ لم يلتفت الى كلامى ، وأخذ ينشد كما كان ينادى باعة الجوافة فى الزمن المـاضى :

« عال يا جوافة •• بقرش الوقة (الأقة) بصاغ الوقة » •

أخذته « الوجدة » وحلاوة التوقيع فاستمر كأنه منبه لم يغلق صاحبه مفتاح الجرس ••

التفت الينا شـبان كانوا يلعبون النرد بجوارنا وأصغوا مشدوهين •• قال أحدهم :

ـ عجيب ! الجوافة كانت بقرش ؟

اجابه صاحبه :

ـ القرش كان عزيز المنال •

ومر ماسح أحذية فقال ذلك الشاب :

ـ ماسح الأحـذية الآن يأخـذ عشرة قروش على مسح الحـذاء •

قـال آخـر :

ـ نعم ومن كان قبله كان يأخذ خمسة مليمات •

ـ كان المليم مليما •• أما الآن فليس القرش ـ وهو عشرة ملسمات ـ شيئا ••

ـ لكن ما هى « الوقة » التى يقول عنها ؟

ـ وحدة ميزان أكبر من « الكيلو » كانت مستعملة أيامهم •

وهكذا دخلت الأقة التاريخ هى وأخوتها أو أبناؤها الرطل والأوقية والدرهم •

قال عبد الظاهر وهو يرفع صوته كأنه يختتم لحن الجوافة :

ـ الجنيه الآن صار مثل القرش •• أليس كذلك يا أستاذ محمود ؟

ـ من فضلك •• اسمى محمد ، قلت لك !

واستأنف عبد الظاهر يقول دون أن يلتفت الى تصحيح الاسم وهو يشير الى بائع الشطائر فى كشك على الرصيف :

ـ هات يا ولد سندوتش كبدة •

قال ذلك زاعقا ، ثم خفض صوته قائلا :

ـ سيأخذ هذا منى عشرين قرشا مقابل السندوتش الصغير الذى لا يحتوى الا على قطعة صغيرة مفتتة من الكبد ••

ـ اسمع يا عبد الظاهر ، كم كان مرتبك أيام كانت أقة الجوافة بقرش ؟

ـ كان سبعة جنيهات ، ولكن كان فيها البركة .

ـ البركة شيء فى نفسك . وكم يبلغ معاشك الآن ؟

ـ ستين جنيها .

ـ انظر ، المسألة نسبية .

فتح عبد الظاهر فمه دون أن يفهم المسألة النسبية ، قال كأنه يخلص نفسه من هذه « الفلسفة » :

ـ أمس ذهبت الى البنك لآخذ المعاش .

ولكن لما وصلت هناك علمت انى نسيت الختم .

ـ الختم .. ألا توقع بخطك ؟ ألم تكن موظفا ؟

فتح فمه الخالى من الأسنان ولم يقل شيئا ، فقلت مشفقا وأنا أنظر الى يده التى تمسك الشطيرة وهى تهتز :

ـ لا بأس .. يدك تهتز ..

ولحظت انه يأكل بدون أسنان : يقطع اللقمة من الشطيرة بيده ـ فهو لا يقضم ـ ويلوكها فى فمه ثم يزدردها ..

فقلت له :

ـ لماذا لا تركب طقم أسنان ؟

ـ ماذا ؟ طقم أسنان ؟ عملته ورميته .

ـ لمــاذا ؟

ـ لم أطقه ، أحسست انه فى فمى مثل « الزلط » ولم أستطع أن أمضغ به •

ولمــا هممت أن أشرح له الطريقــة المثلى فى اســتعمال الأسنان الصناعية ـ حسب تجربتى ـ ترددت ، لأنى توقعت أنه لن يقتنع ، وقــد لا يفهم •• ولكننى قلت فى نفسى : أنــا أحدثه ، فهم أم لم يفهم ، فأنا أريد أن أتكلم كما تكلم ذلك الحوذى مع الحصان ولهذا قلت له :

ـ أسمع ، ان الانسان عندما يركب طقم أســنان فى فمه يشعر أولا بالضيق منه وانه شىء غريب فى فمه ، وعندما يأكل يحس ـ كما تقول ـ كأنه يمضــع « الزلط » ولكن لابد من احتمال ذلك بضعة أيام ، ثم يعتاد ويصبح كأن لاشىء غريبــا فى فمه ، بل على العكس يشعر اذا خلعه كأن شيئا ناقصــا فى فمه ويأكل كأن له أسنانا طبيعية •

ـ ماذا تقول يا أستاذ محمود ؟

ـ محمد من فضلك ؟

لم يعر احتجاجى أية أهمية واستمر يقول وهو يلوك الكلام مثل ما يلوك اللقمة :

ـ أنــا مستريح هكذا •

ـ كما تريد .

وقلت فى نفسى حريصا على ألا يسمع : وأنا مالى ؟

ثم قال بدون مناسبة ، أو لعله رآنى أكلم نفسى :

ـ زوجتى تكلم نفسها .. أنها سيدة طيبة تحبنى ، بعد تناول الطعام أقول لها : هل هناك شيء حلو ؟ فتقول : افتح الثلاجة وخذ واحدة من المنجة . فآخذ واحدة وآكلها فتقول لى : خذ واحـدة أخرى .. وتلح على فى ذلك ... ولكن الذى يقلقنى أنها تكلم نفسها .. وذلك عندما نكون منفردين ليس معنا أحد من الأولاد أو غيرهم .. ما رأيك فى ذلك يا أستاذ محمـود ؟

قلت فى نفسى : لا فائدة ، محمود محمود .. وقلت له :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هل هى مجنونة أم عاقلة ؟

ـ انها عاقلة جـدا .

ـ وهل هى تحبنى ؟

عندما وصـل الأمر الى حد هـذا السـؤال حسـدت « الحوذى » على أنه كلم حصانا لا يتكلم .. فأنت تستطيع أن

تتخيل أى شيء من جماد أو حيوان غير ناطق ـ تتخيل أنه يعى ويدرك ما تقول له ، ويتكلم طبقا لما تتخيل ، فتشعر انك تتفاهم فعلا ، ويحلو لك الحديث .

أما أن تكلم انسانا فتجده يهرف كان لا عقل له .. فان هذا يسد أمامك باب التخيل ويضعك أمام كلام فارغ تضيق به وبصاحبه .

اذن لم ألب حاجتى الى التكلم مع أحد ، فلأعد الى زوجتى ، نارها ولا جنة عبد الظاهر ..

العجوز واللعبة

كان متجها الى القهوة كعادته حينما تذكر شيئا جعله يقف فى الطريق كى يستدير عائدا الى المنزل .

منذ احالته الى التقاعد وهو يذهب يوميا الى القهوة حيث يلتقى هناك بزملاء له من أرباب المعاشات ، لم يكونوا زملاء له فى العمل ، بل هم زملاء فى « اللاعمل » الا اذا اعتبرنا لعب النرد والشطرنج عملا .

كان يخرج فى الصباح كما اعتاد قبل أن يحال الى التقاعد ويذهب الى القهوة كما كان يعدو الى مقر عمله فى الادارة الحكومية ، وان كان الآن يعطى نفسه بعض الوقت متمهلا ، فلا داعى للعجلة ما دام لا يوقع على ورقة الحضور ، ويمكث فى القهوة حتى يقترب موعد الغداء فيروح الى البيت .

هذا الصباح تذكر الجد حفيده ، وهو فى طريقه الى القهوة

فهم بالعودة الى البيت ولكنه تردد • العادة تجذبه الى الأمام ، والولد يشده الى الخلف • ثم قال فى نفسه : أذهب الى القهوة وأمكث قليلا ثم أعود •

وجد هناك اثنين من أصحابه يلعبان الشطرنج جلس يشاهد اللعب وشرب فنجان القهوة ، انه ينظر الى اللعب وذهنه شارد ، لم يستطع أن يكف عن الشرود ويركز أمامه ، جاء صاحب ثالث وقال له :

ـ أتحب أن تغلب « عشرة طاولة » ؟

ـ هاتها •

لم يجادله ، لم يبادله عبارات الدعابة ، لم يقل له مثلا : أنت نسيت العشرة « التى أكلتها أمس » ؟ لأنه لم يكن رائقا •

غلبه ملاعبه ، نهض ساكنا ، وخرج من القهوة يبغى العودة الى البيت ، لمح « البوتيك » المجاور للقهوة •

أصبحت هذه « البوتيكات » التى تبيع الواردات الأجنبية فى كل مكان •

تأمل لعب الأطفال ثم اشترى لعبة ثمنها خمسة جنيهات مثلها فى الماضى كان ثمنه خمسة قروش • ولكن أى شىء بقى على حاله ؟ لولا حبه لوليد ما هان عليه أن يدفع هذا المبلغ •

لف البائع اللعبة وأعطاها له . فأخذها وسار عائدا الى البيت مسرعا فرحا يتخيل استقبال وليد له بقوله هاتفا :

ـ جدو جه !

ابتسم راضيا عن نفسه . وأسرع حتى بلغ البيت فى مدة قصيرة : ربع ساعة وعند ذهابه الى القهوة قطع المسافة فى أكثر من نصف ساعة .

***

قالت العجوز والقلق يساورها كأنها توقعت ان يكون به مرض جعله يعود مبكرا .

ـ خير يا أبا خالد ، جئت مبكرا على غير عادتك ، ماذا بك ؟

ـ لاشيء أين وليد ؟

ـ جاءت أمه وأخذته .

ـ كيف جاءت مبكرة هكذا ؟

ـ أنسيت ان اليوم يوم خميس ؟

أخذته على أن تأتي به يوم السبت .

ـ ولماذا لا تدعه عندنا وتأتى هى الى هنا ؟

ـ أبوه يريد أن يراه . أن يمسك معه هذين اليومين وسيخرجون غدا (الجمعة) للنزهة ؟

ـ أين يذهبون ؟

الى النادى .

ـ سكت قليلا وهو يلعب باللعبة متلذذا كأنه يتسلى بها عن الولد أو يتخيله وهو يلعب بها ، ثم قال :

ـ اسمعى يا أم خالد ، لماذا لا نشترك فى هذا النادى ؟

ـ أذكر انهم يوم اشتركوا فيه كلفهم نحو مائتى جنيه .

ـ مائتا جنيه ؟

ـ نعم لا يدخله الا الأغنياء .

ـ كنت أقول بدلا من ذهابى الى القهوة أقضى الوقت فى النادى أحسن وأيام الاجازات والجمع نجتمع مع الأولاد هناك .

وسكت قليلا ثم قال :

ـ على أى حال فلنؤجل هذا الموضوع حتى نبحثه مع خالد .

ـ اذا وافق خالد يمكن أن يساعدنا ماليا .

ـ هو حقا يتقاضى من الشركة مرتبا لا بأس به . ولكنه يعد العدة للزواج .

دخلت أم خالد المطبخ مسرعة لترى ما على النار خشية أن يحترق أما أبو خالد فلم يجد شيئا يعمله ، فأمسك اللعبة التى اشتراها لوليد . اللعبة قطار صغير افسح له مكانا يسير فيه فى دائرة ، يسير سريعا . انطلق القطار يدور وهو يرمقه بعين قريرة ويتخيل « وليد » .

ـ أنظر يا وليد ها هو ذا يخرج من المحطة ويمضى فى طريقه . ويقول وليد :

ـ نعم يا جدو . ها .. ها .. هيا نركب فيه .

تأتى أم خالد وتقول ضاحكة :

ـ ما هذا يا رجل ؟ أتلعب كالأطفال ؟

ـ أنا أجربها .

جلست الى جواره وهى تتأمل اللعبة ، ثم تقول :

ـ دعنى أجرب معك .

ـ لا بأس ، اقعدى ، وانتظرى حتى أغير ثيابى .

دخل الى حجرة النوم وخلع « البدلة » والحذاء ، ولبس

الجلباب و (الشبشب) وعاد سريعا الى حيث اللعبــة ، فرأى زوجته منهمكة فيها فقهقه قائلا :

ــ أنت أيضـا ؟

ــ لمـاذا تضحك ؟ أنـا أجرب مثلك .

نظر اليها باسما ثم جلس بجوارها أمام دائرة اللعبة .

ــ كفاك .. دعيها وقومى « شوفى شغلك » .

ــ ليس عندى شغل ، دعنى أكمل .

ــ يا امرأة « اختشى » .

ــ ولمـاذا لم تختش أنت ؟ أتريد أن تستأثر بها وحدك ؟

ــ ولا أنـا ولا أنت انها لعبة وليد .

***

فى صباح اليوم التالى (يوم الجمعة) شرع أبو خالد فى ارتداء ملابس الخروج وهو آسف لعدم وجود حفيده (وليد) وقال فى نفسه : اليوم لا مناص من الذهاب الى القهوة وغدا يكون هنا . سألاعبه بالقطار بدلا من لعبة الشطرنج مع أولئك الذين مللتهم ومللت اللعب معهم ، لا تغيير ولا تجديد ، حياة رتيبة لم يعد فيهـا شىء يسـلى ، وعجبى لهم يتناقشـون حول الكرة

وأحيانا يشتبك الاهـلاوى مع الزملكاوى وهم يدبون على العصى .

كنا فيما مضى نتناقش فى السياسة ويتعصب البعض لحزب ويقارعه آخر منتم لحزب آخر . ثم جاء من الحكام من يسكت كل الأصوات ، ويقول للجميع : ليس هذا شأنكم ، اسكتوا فنحن نتكلم ونفكر عنكم . ووجد الناس متنفسهم فى الكرة ، فى لاعبيها ونواديها يتجادلون ، وعليها يختلفون .

والعاقل من يحصر همه فى مواد التموين ، ما نزل منها فى الجمعيات الاسـتهلاكية ، وما نفد ، دجـاج ولحوم مستوردة وأخرى محلية وأسماك مجمدة ... الخ قال أحد العقلاء :

أما اليوم فأصبح هم الجميع محصورا بالمواد المستوردة ويرى أحدهم ان « الهامبورغر » المستورد نافع ، لقد وجد فيه بغيته ، فهو رخيص ولذيذ .

وقـال آخـر :

ـ رخيص ؟ أى شىء رخيص ؟

ـ نسبيا أقصد بالنسبة لبقية الأشياء .

ثم تابع الرجل المتفائل :

ـ افرح يا عم تقررت علاوة لأصحاب المعاشات .

ـ علاوة ؟ هـه . ثمن كيلو اللحم .. فى الشهر .

ـ يا أخى .. شىء خير من لاشىء ..

وقال واحد من الجماعة كأنه يلقى حكمة :

ـ وبعد العلاوات ترتفع أسعار الحاجات .

***

بينما كان أبو خالد يرتدى « ملابس الخروج » ويتذكر ما يدور فى حلقة أصحاب المعاشات فى مجلسهم دق جرس الباب وهرعت أم خالد اليه ثم هتفت فى سرور :

ـ أهلا بك يا حبيبتى .

وعانقت ابنتها هـدى . وتبادلت الاثنتان القبـلات . ثم التفتت الأم الى زوج ابنتها وقالت :

ـ أهلا يا رشدى تفضل .

على حين اندس وليد يجرى الى جده فيلقاه الجد بالحضن والقبلات ثم يتناول اللعبة ويقدمها اليه فيغمر السرور الطفل ويكاد يطير من الفرح ، وقلب الجـد معلق به يـكاد يطير من الفرح ..

قالت هـدى :

ـ عدلنا اليوم عن الذهاب الى النادى وقلنا نجىء فنقضى اليوم معكما .

سمعها أبوها فقال فى همس بينه وبين نفسه :

ـ نعم ما فعلتم .

وقالت الأم العجوز :

ـ أهلا بكم يا أعز « الحبايب » .

واتجه الجد الى حيث يبدل ثيابه فخلع ملابس « الخروج » وارتدى الجلباب .

البحث عن صديق

ـ ولكن ماذا حدث وأدى الى غضبها وذهابها ؟

ـ حدث ما يحدث دائما بيننا لا تطيقنى ولا أطيقها يخرج الكلام من فمها كالدبابيس تنغرس فى لحمى ولا أبرىء نفسى فأنا كذلك لا أملك الا أن أتأفف من فعلها وأعنفها ، عادت بى الذاكرة الى الماضى . كان يحبها وهى تبادله الحب سعى فى الزواج منها واجتاز فى سبيل ذلك عقبات قلت له :

ـ ماذا جرى يا أخى ؟ ألم تكونا متحابين ؟

قال وهو ينفث :

ـ ايه .. كان زمان ..

***

تركت صديقى هذا أو قل اطلال صديقى وعدت الى

الوحدة ثم تذكرت صديقا آخر هو « لطفى » وكنت لم أره هو أيضا منذ سنين ، باعدت بيننا مشاغل الحياة .

تجشمت المشوار حتى بلغت بيته ، فاستقبلنى هو أيضا معربا عن شوق الى رؤيتى شاكرا لى السعى اليه .

صرفت النظر عن أن أجده كعهدى به أيام كنا نلتقى ونتبادل المداعبات ونضحك ونقهقه لسبب ولغير سبب . فالزمن له أحكام ، وجدته طبعا من رعايا « دكتاتورية الزمن » .

شكا الصديق من أحوال الدنيا . وآخرها يا سيدى (يقول) ابنى صلاح

ــ ماله ؟

قال انه يريد أن يختصر الطريق فلا يلتحق بالجامعة لأن خريجيها اما يعينون فى وظائف الحكومة فيدخلون فى عداد البائسين واما أن يتركوا « العنطزة » ويعملوا فى المهن التى تدر عليهم المال ، وتيسر لهم العيش اللائق .

وتابع فى مرارة :

ــ و « السيد » صلاح يريد أن يختصر الطريق .

ــ كيف ؟

ــ يلتحق بمعهد فنى يتعلم فيه حرفة .

سكت أنـا ، بدا لى أول الأمر أن المسألة معضلة ، وبعد تفكير قلت له :

ـ لمـاذا تريد أن تكرهه على اللحـاق بالجامعـة وهو لا يريد ؟ أتظن أنه سيفلح فيها ما دام كارها لها ؟

نظر الى فى مزيج من الغضب والعتاب وقال :

ـ أتريد أن يكون ابنى سباكا أو نجارا أو أى شىء من هذا القبيل ؟ لقد كادت أمه تبكى حين سمعت منه ذلك .

ترددت قليلا ثم قلت :

ـ ولم لا يكون ما يريد ؟

ظهر عليه الغضب وارتعد وهو يكاد يصرخ :

ـ لا .. لا ..

ـ فلنفكر بهدوء ، ان ابنك هذا لا يجد عنده ميلا الى اتمام التعليم فى الجامعة ويبدو أنه يتطلع الى تكوين نفسـه ماديا . ولن يثنيه شىء عن ذلك واذا أكره على ما لا يريده فلن تستقيم حياته ان خضع لمـا يفرض عليه .

ـ أنـا أرغمـه ، ولابد أن يسـمع كلامى ، والا فانى متبرىء منه .

لم أر فائدة من الاستمرار فى المناقشة أمام هذا الاصرار .

خرجت من عنده وأنا مشغول الفكر • كثير من الناس يرغمون أولادهم أو يرغبونهم فى التعليم الجامعى وقد يتجشمون فى الانفاق عليهم أكثر مما يطيقون والأولاد غير الراغبين يناسقون وقد يكون انسياقهم بدافع الاعتبارات الاجتماعية وتكون النتيجة ـ كما ترى ـ أن يخرجوا ـ بعد أن ينالوا الشهادات الى وظائف يمثلون فيها « البطالة المقنعة » وكم عندنا من جامعات وكم تقبل من طلاب تتكاثر اعدادهم بتكاثر النسل فيزحمون المدرجات والمعامل ، أى أن الانفجار السكانى ينفجر فى الجامعات ونحن نسمى تعليمهم جامعيا وهم فى الحقيقة كالخزانات تملأ من المحاضرات التى تدون فى « كشاكيل » ثم تفرغ فى الامتحانات حتى لا يبقى شىء فى الخزان •

قلت له قبل أن انصرف :

ولدك يا أخى يبدو أن ميله يتجه الى الحرف اليدوية ويجب أن ينمى هـذا الاتجاه لا ان تصادره أنت انه كالتيار الجارف ان لم يأخذ طريقه الى الهدف فاض على الجوانب وانحرف عن الجـادة • بلادنا يا أخى محتاجة الى الحرفيين كما هى محتاجة الى المهندسين والأطباء والقضاة والمحامين وأمثالهم •

لم يعجب هذا الكلام صديقى وسكت عابسا فى شىء من الجفاء نحوى كأنه يقول لى :

قد قلت ما عندك فتفضل •

خرجت من لدنه مرتـاح الضـمير لأنى قلت ما أعتقدت وتوكلت على الله .

ثم تذكرت صديقا آخر وقلت فى نفسى : لا لن استسلم للصحراء لابد من واحة أتفيأ فيها ظل الصداقة .

نعم عيسى صديق قديم فلأذهب اليه .

ـ السلام عليكم يا عيسى .

ـ أهلا يا محمود أين أنت من زمان ؟ وكيف حالك ؟

ـ أنـا عائش لا أزال كما ترانى .

ـ كم أنـا سعيد بك يا أخى ، أشكر لك هذه الزيـارة الكريمـة .

وامتد بنا الحديث ، حتى أفضى الى بمكنون نفسه :

ابنتى فوزية تصور يا أخى ، معقود قرانها على شـاب كان زميلها فى الجامعة منذ ثلاث سنين .

ـ ما شاء الله .. فوزية كبرت وصارت عروسا .

ـ نعم يا أخى ولكن .

ـ ولكن مـاذا ؟

ـ لم يجدا حتى الآن « شقة » تأويهما ولولا أن شـقتنا

صغيرة وفيها الأولاد الآخرون خمسة وأمهم وليس عندنا أى فراغ لعروسين أو غير عروسين ـ لقبلناهما فيها معنا ، ولا ندرى حتى الآن ما العمل • سمعتهما مرة يقولان : كنا فى الجامعة نظن اننا سنتخرج وتنتهى المشاكل ونتزوج فاذا نحن الآن فى معمعة المشاكل •

الواقع انى فى هذه المرة أمام مشكلة الشقة ، عجزت عن أى حل أبديه ولم أجد غير أن أقول :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله •• الولد موظف والبنت موظفة فمن أين لهما آلاف الجنيهات التى تدفع للحصول على شقة تمليكا أو خلوا ؟ اننا نقرأ فى الصحف اعلانات عن شقق يطلب فيها المالك عشرين ألف جنيه أو ثلاثين ونحو ذلك وأكثر منه ويدعون انهم بذلك ييسرون على الشباب وما هو فى الحقيقة الا كالسراب الذى يعذب برؤيته العطشان •

ـ استمع الى صاحبى صامتا حزينا ، وربما كان سارحا لا يسمع ثم قال وهو يتنهد :

ـ الأمر لله ••

***

هل أعود الى الصحراء أى بدون أصدقاء ؟

آه ، يقال ان الكتاب خير صديق ، فلماذا لا ألجأ الى الكتاب ؟ قلت فى نفسى : ان كتبى قديمة ولابد انى قرأتها فيما مضى وستكون مملة اذا عدت اليها ويحسن أن اشترى كتابا جديدا وان كانت الكتب غالية فى هذه الأيام • درت دورة على المكتبات وباعة الصحف الذين يعرضون الجديد من الكتب الى جانب الجرائد والمجلات وكان لابد من التأنى والتروى فى الاختيار اذ يقال ان الانتاج الفكرى قد ضعف حتى لا نجد كتابا جيدا ، على أى حال التأنى أحسن • وان اختيار الكتاب الصديق ليس أقل مشقة من البحث عن صديق مخلص ، فالكتاب ان لم يكن جيدا كان أسوأ من الصديق السيء ، واستقر نظرى على كتاب وقلت : لعل هذا يحل المشكلة •

تصفحت الكتاب ، هل رأيت كيف تقبل على رجل يخدعك مظهره ثم تتبين حقيقته فاذا هو ليس كمظهره ؟ الورق مصقول والصورة على الغلاف باهرة ، ولكن المحتوى لاشىء • الكلام ركيك والمعنى تافه ، انه لا شىء •

عدت الى كتبى المقتناه قلت : من فات قديمه تاه لعلى واجد فيها الصديق الذى افتقده ، على كل حال لن أجد عندها مشاكل كالتى رأيتها عند أصدقائى الثلاثة ، أمسكت باحدها وقرأت ما كنت قرأت من قبل ولكن كنت أجدنى منجذبا اليه وأنست به ساعة من الزمان ثم طويته وقمت أصيح :

ـ أريد صديقا من الناس ، فأين هو يا ناس ؟ كيف يغنى الكتاب عن صديق من البشر ؟ .

أين أصـــدقائى ؟ انى لا أراهم الآن وطالمـا أنست بهم فيما قبل ، الآن ذهبوا فلا صديق أفضى اليه بخواطرى وأسمع منه ما يفضى به الى ، منهم من ذهب الى الآخرة وأسفاه ! ومنهم من هو على قيد الحياة ولكن الظروف تباعد بيننا وأنـا مشـوق الى أى منهم ، لا يهم أن يكون من الأوفياء المخلصين .

عزمت على أن ألتمس أيا منهم تجشمت صعوبات جمة فى المواصلات حتى وصلت الى صـديقى عبد العليم . استقبلنى مرحبا وأعرب كل منا عن اسفه لطول المدة التى لى نلتق فيها .

ولكن .. هل هذا عبد العليم ؟ كدت أعتقد انى ضللت الطريق ، ليس هـذا صديقى الذى عرفته كان مرحا فكها ولكن الذى أراه أمامى قد تغير وصار الى الضد : متجهما عابسـا وان كان يتكلف الانبساط فى وجهى .

ـ مالك يا عبد العليم ؟

ـ لا شىء .

ـ لست كعادتك وان كنت لم أرك منذ مدة طويلة .

تنهد وقال وهو يمط صوته فى شبه أنين :

ـ ايه .. كانت أيام .

ـ قل لى أفض الى فأنا صـــديقك عد الى طبيعتك الأولى اذا كنت لا تخفى عنى شيئا .

ـ تركتنى وذهبت .

ـ من هى ؟

ـ زوجتى .

ـ ذهبت الى أين ؟

ـ الى بيت أبيها غاضبة . لا يهمنى ذلك الا أنها تركت لى الصغار أحتار فى خدمتهم وجاء واحـــد من الصغار يجهش بالبكاء ويقول :

ـ بابا أين ماما .. ؟

التفت عبد العليم الى وقال :

ـ أنظر هذا مما يعذبنى .

لكل حكايته

أبدأ أنا أولا حكايتى :

اسمى « عمران » أصلى من قرية من قرى احدى المحافظات بالوجه القبلى بمصر كانت تسمى الى عهد قريب مديريات • يدير كلا منها مدير ، وهو المحافظ الآن ، وما أكثر ما رأينا اسماء تتغير ••

المهم كان السمن ككل شيء فى قريتنا رخيصا جدا • الرطل بثلاثة قروش أو أربعة على الأكثر كان الرطل هو وحدة الوزن اذ ذاك وهو أقل قليلا من نصف الكيلو ، لم يعد له ذكر الا فى قولهم لمن هو قليل التبصر : وقع مثل الرطل ••

وان شئت الدقة قلت لك : ان السمن كان يباع فى قريتنا بالكيل : النحاسة بخمسة قروش وزنة النحاسة رطل ونصف وهى كوز مصنوع من النحاس غالبا وتقدير السمن به ـ وهو سائح ـ أسهل من الوزن •

المهم .. مرة أخرى .. سمعنا ان السمن فى القاهرة غال ، الرطل يباع بسبعة أو ثمانية قروش : الضعف تقريبا — سمعنا ذلك من « صميدة » الذى هاجر من القرية الى القاهرة وفتح بها دكان بقالة ، ومازال يتردد على القرية لم يقطع صلته بها .

والتفت عمران الى ماسح الأحذية وهو يضع احدى رجليه على الكرسى الخشبى الصغير كى يمسح له الولد الحذاء وقال له :

— شبعها ورنيش يا ولد أنت ستأخذ نصف ريال على المسحة .

— من غير فلوس يا معلم ، خيرك سابق .

كان المعلم عمران يجلس على هذه القهوة غالبا وكثيرا ما ينادى ماسح الأحذية هذا الذى يلازم القهوة ويكلفه أن يشترى له شيئا ويعطيه ما فيه القسمة ، أكثر الأشياء التى يطلبها الفطير ، يقول وهو يأكل الفطيرة :

— عشنا وشفنا .. الفطيرة التى كانت بقرشين صارت بخمسة عشر قرشا .

قال له أحد مجالسيه مرة :

— انظر انت بكم تبيع كيلو اللبن .. الا تبيعه بسبعين

أو ثمانين قرشا بعد ما كان لا يزيد على عشرين قرشا منذ زمن قريب ؟

ـ وأنا مالى .. أشتريه غاليا وأبيعه غاليا .. المهم أن لبنى طبيعى لا يمسه أى شىء .. ليس هناك أحسن من الحلال .

صار « عمران » لبانا يبيع الألبان ومنتجاتها .

التفت الى مجالسيه وقال بعد أن أخذ نفسا عميقا من الشيشة وسعل :

ـ لم أكن ـ ولا مؤاخذه ـ أدهن حذائى بالورنيش ، مرة قال لى الاسكافى وهو يفحص حذائى : أنتم هكذا يا فلاحون .. تتركون الحذاء حتى يتشقق ولا يهون عليكم مسحة بتعريفة .

نعم كانت المسحة بخمسة مليمات (قرش تعريفة) وكان أرخص من ذلك أن نشترى علبة ورنيش بقرش صاغ تكفى لمرات كثيرة .. ومع هذا لم نكن نهتم كأنه ترف لا يليق بنا ان ننفق فيه المال .

تذكر عمران أنه كان يحكى حكايته مع السمن فقال :

لقد أخذنا الكلام نعود الى مسألة السمن . فهى المسألة المهمة لأنها كانت السبب فى تغيير مجرى حياتى ، خطر لى أن

أربح من الفرق الكبير بين سعره فى المدينـــة وسعره فى القرية ففاتحت « صميدة » فى أن أجمع منه كمية كبيرة وأحملها الى القاهرة ، فوافق على ذلك بل أبدى استحسانه للفكرة ووعد بالمساعدة فى التوزيع .

فى قريتنا يضعون فى السمن « كركما » فيكسبه لونا أصفر ويحسن مذاقه ويساعد على حفظه دون أن يتغير و « يزرنخ » .

وفى القاهرة عرض السمن الأصفر على من يشترى وهنا كانت المفاجأة . بل الكارثة .

أهل القاهرة لا يعرفون مسألة الكركم ولا يقبلون على شراء السمن الا اذا كان أبيض رائقا .

فأعرضـــوا عنه ..

ـ لمـــاذا لم تقل لى يا صميدة ؟

ـ لم يخطر ذلك ببالى .

ـ وماذا نفعل الآن يا صميدة ؟

ـ سنتصرف على قدر ما يمكن . وعلى كل حال العوض على الله .

أخذ صميدة كمية لمنزله كما أخذ شقيقه عسكرى الشرطة كمية أخرى وأعيد الباقى الى القرية وتحملت الخسارة : خسارة

النقل ذهابا وايابا ، وخسارة الثمن الأصلى ، وضاع الجهد الذى بذلته فى جمع السمن من النسوة وتعبئته فى صفائح ولحام الصفائح الى آخره وتبخر الأمل .

فى أثناء ذلك تعلقت بالحياة فى القاهرة ، ولم يعد لى مجال فى القرية بعد أن بعت « القراريط » من الأرض الزاعية التى ورثتها عن أبى ، اشتغلت فى القاهرة محصلا (كمساريا) فى سيارات « الأوتوبيس » التابعة لشركة « ثورنيكرفت » بوساطة العسكرى (بلدياتنا) شقيق صميدة . وكان يضايقنى فى هذا العمل ان السائق يشير الى ألا آخذ أجرة من المرأة التى تقف بجواره ..

لم تذهب من بالى مسألة السمن ، ولم تذهب من خيالى أطماع الربح فيه فما أن ادخرت مبلغا من أجرى حتى تركت هذا العمل وعدت الى القرية ، وكان أول شىء ان نبهت النساء ألا يضعن الكركم فى السمن عند غليه . جمعت قدرا لا بأس به وحملته الى القاهرة وربحت فيه ما حفزنى على المعاودة والاستمرار حتى صرت تاجرا كبيرا .

وذات يوم رأيت « جنات » آتية من بلدنا تحمل سمنا وجبنا وبيضا لكى تبيع ما معها فى القاهرة ، جنات هى الآن أرملة ، ترك لها زوجها المتوفى أولادا صغارا تسعى الآن على رزقهم .

هى تلك البنت السمراء الجذابة التى مال اليها قلبى ونحن صغيران وطالما لعبنا معا ، لم يغب عنها الا الابتسامة الرائعة التى كانت تفتننى .. لابد أن أعيد الى ملامحها الجادة الصارمة تلك الابتسامة الفاتنة .. كيف ؟

تزوجتها ورحبت بصغارها وجعلتهم صبيانا فى محل الألبان الذى فتحته ، فأعانونى على توصيل اللبن الى الزبائن فى المنازل ، وقد كبروا وصاروا من خيرة العاملين ، أحدهم لايزال يساعدنى فى المحل حتى الآن .

سعل المعلم عمران ، ونادى النادل :

ـ تعال يا حنفى ، هات حجرا للشيشة ، وهات شايا للأستاذ .

تعارف المعلم عمران والأستاذ من كثرة جلوسهما فى القهوة .

الستر :

تفتحت نفس « الأستاذ » للحديث وحكى حكايته ، لم يكن صريحا فى كل شىء ، انما كان يذكر أشياء ويخفى أشياء يتحدث بها مع نفسه فى فترات الصمت ، قال :

اسمى سامح ، موظف فى الحكومة منذ عشرين سنة ، كنت فى أول الأمر محسودا مرموقا ، اذ كان يقال عن مثلى « موظف قد الدنيا » وصرت الآن من أشقياء الدنيا وهذا حال الدنيا ، ترفع من تشاء وتخفض من تشاء .. كلما حصلت على علاوة زاد مرتبى ونقص رزقى .. اذ تلتهمه الأسعار المتزايدة ، فلا تبقى منه على شيء . الحمد لله على الستر على أى حال .

سكت قليلا يفكر قبل أن يمضى فى الحديث .. هل أتكلم بصراحة ؟ هل أعرى نفسى ؟ هل أقول انى الآن لا أستطيع أن أدعو ماسح الأحذية لكى يمسح حذائى ثم أعطيه عشرة قروش ؟

لا ، هذا لا يليق ، كأنى بذلك أطلب من المعلم عمران أن يدفع لى كأنى شحاذ ألا يكفى انه طلب لى الشاى ؟

ولكن لا بأس بكلام آخر:

كنت أخرج من الديوان عند الانصراف من العمل . وأمر بباعة الفاكهة ، فاشترى ما أدخل به على الأولاد فيفرحون ويزيطون ، وخاصة اذا كنت أحمل بطيخة . وكم كانت فرحتى عندما يتصايحون « بابا جاب بطيخة » ، واليوم لا يجرؤ الواحد منا على شراء بطيخة .. الواحدة بثلاثة أو أربعة جنيهات . وربما أكثر . وكيلو المشمش بمائة وخمسين قرشا طول الموسم ،

وكنا نظنه سعر « البدارى » وقد أوشك المشمش على الانتهاء فعمره قصير •

هل أحكى أن الولد قال لى : يا أبى لم نأكل مشمشا هذا العام ؟ لا ليس هذا من اللائق •

صمت سامح اذ أحس أنه سيفضى بأسرار حياته وما يخجل من ذكره • فماذا يقول ؟

أقول عما يجرى فى حياتنا نحن الموظفين والشكوى لغير الله مذلة ؟ بعض الزملاء يمد يده الى من يسمون « رجال الأعمال » الذين يقدمون الرشاوى لكى ننجز أعمالهم ولكنى أنا أشعر بالمتعة لا تقدر بثمن كأنى أقول للواحد منهم : أنت تعتز بمالك وأنت فى الحقيقة لاشىء •• والأرزاق على الله •

وعندما أشعر بالحاجة الى المال لأقضى به الحاجات المتجددة أشعر بأنى بين المطرقة والسندان ••

« الستر » هو المعجزة التى تسير عليها الأمور ، وهو شىء لا يرى ولا تدرى كيف يقع •• هل سمعتم نكتة من النكت التى كثر تداولها فى عهد ماض قريب حينما اشتد الضغط على الشعب ووجد متنفسه فى التنكيت : قالوا ان الحاكم سار متخفيا هو ووزير المالية ، كما كان يفعل هارون الرشيد

وجعفر البرمكى مع الفارق ، سارا حتى جلسا على قهوة شعبية واصغيا الى حديث يجرى بين اثنين ، قال أحدهما وقد سأله الآخر عما يصنع فى موازنة دخله .

ـ الستر .. الستر يا أستاذ ، لولا الستر لافتضحنا .

فقال الرئيس للوزير :

ـ انظر مسألة الستر هذه ، أليس عندك طريقة تأخذ بها الستر منهم ؟

أنا لا أستطيع أن اكشف نفسى وأعريها أمام الذى يساوى والذى لا يساوى ماذا أقول ؟ هل أنا عصامى نشأت فقيرا ثم كافحت حتى بلغت ؟ وماذا بلغت ؟ لا ، انى انحدرت عكس العصامى ، من فوق الى تحت فلأنطو على نفسى وحسبى ما بى ، ألا يصح أن يطلق على مثلى لقب « انحدارى » مقابل عصامى ؟

المحب المفلس :

كان حديث الموظف أكثر بينه وبين نفسه كما قلنا ، وبقى ثالث ، الشاب « صلاح » الذى تخرج حديثا من احدى الكليات الجامعية ، وهو الآن على عتبة الحياة العملية ، لم يقرر بعد ماذا يعمل ، وهل سينتظر التعيين فى الحكومة ، أو يبحث عن عمل آخر يكون أكثر عائدا ، أو يتشوف طريقا الى السفر خارج البلاد .

ان أهم ما يشغلنى الآن هو الحصــول على شقة ، كيف وأنــا لا أملك الآلاف الكثيرة المطلوبــة ؟ كافح أبى الموظف للانفاق على تعليمى ، وأكثر ما كان يثقله الدروس الخصوصية التى كنت احتاج اليها ، وقد عانى منها ما عانى ، ولاشك أنه ينتظر الآن ثمرة كفاحه ومن أين تأتى هذه الثمرة ؟ بعض الخريجين من أبناء « الواصلين » عينوا فى الشركات والمؤسسات بمرتبات كبيرة ، وبعضهم يزاول أعمالا حرة أو قل حرفــا كالسباكة واشــغال الكهرباء . وأنا مازلت أرث فى دمى النفور من هــذه المهن ، وكذلك أهلى الذين ينطبق عليهم المثل « فقر وعنطزة » .

والواقع اننا نحن الخريجين تتفاوت كثيرا ، حسب غنى الأهل أو فقرهم أو كونهم من متوسطى الحال ، كما كنا نتفاوت، ونحن طلاب ، سمعنا عن شعار تذويب الفوارق ، الذى كان سائدا منذ سنين والذى تجمد الآن وأصبحت الفوارق أكثر مما كان .

كاد يفوتنى قطار الزواج ، أتعرف معنى الزواج ؟

شبكة ومهر وشقة وفتح بيت ... الخ ، أحببت « منال » زميلتى فى الكلية وبادلتنى الحب كنا نظن اننــا بعد التخرج سيلتئم شملنا فى عش زوجى نعيش به فى حياة زوجية سعيدة ولكن خاب فالنا أو قل صحونا من غفلتنــا على واقع معتم ،

فنحن الآن نهيم فى ظلال ليل لا يبدو له آخر ، وان كان يحدونا الأمل فى أن يسفر عن صباح ولكنه أمل بعيد لكى نحققه يجب أن يكون معى عشرون ألف جنيه على الأقل لكى نستقر فى عش الزوجية المـأمول ، وأول شىء أن نحصل على شقة ، وما أدراك ما الشقة ؟ لقد صارت فى هذا الزمن عقدة العقد .

نسمع من الجيـل السابق أن كان الواحـد منهم عندما يحتاج الى مسكن ما عليه الا أن يجول فى ارجاء المدينـة فيرى عشرات الشقق مكتوبا على أبواب منازلها « شقة للايجـار » وهو ينتقى منها ما يعجبه ويلائمه بأجر زهيد .. هذه لا تدخلها الشمس أو تدخلها ولكن بدرجة غير كافية ، فهى مرفوضـة ، هـذه ليست واجهتهـا شـمالية ليس بها شرفـات تتلقى ريح الشمال .. فهى كذلك مرفوضة ، اما هـذه فيتوافر فيها كل ما يطلب وان كانت أجرتها تزيد قليلا . ثلاثين قرشـا مثلا ، تقول صاحبة البيت انها بمائة وثمـانين قرشا شـهريا ، وليتها بمائة وخمسين .

حقا الدخول قد زادت ولكن هل زادت بما يتناسب مع ذلك الفارق الكبير من مائة وثمانين قرشا الى خمسة عشر ألف جنيه على الأقل ؟ يقولون « شقة تمليك » وهو تمليك بالاكراه ما هو فى الواقع الا « خلو رجل » مقنع .

ألا توافقوننى على اننا وجدنا فى عصر ليس كمثله فى السوء عصرا ؟ والغرابة انه عصر التقدم ..

وارجع وأقول : لماذا نفترض هذه السوء ؟ وهل كل الناس تهدمت عليهم العمارات ؟ منذ أيام قابلت واحدا يعمل فى بلد من تلك البلاد التى يروج فيها العامل المصرى ، سألته عن حال المعيشة هناك وهل يستطيع الانسان ان يدخر مبلغا يواجه به الأعباء الحاضرة فى مصر بعد أن يعود ؟

أجابنى بان الغلاء هناك شىء فظيع يبتلع الدخل حتى لا يكاد يبقى منه شىء اذا أراد الواحد أن يعيش كما ينبغى .

قلت فى نفسى : ان هؤلاء المواطنين يدفعون عن أنفسهم تهمة الاثراء حتى لا يحسدوا .. والا فما الذى يحملهم على الاغتراب .

وربما كان ذلك بالنسبة للموظفين ، فان ذوى الدخل المحدود تتبعهم اللعنة اينما كانوا .. أما الحرفيون فهم الفائزون هناك كما هم هنا ، قال لى واحد منهم صناعته ضبط أبواب السيارات انه قضى هناك سنتين عاد بعدهما بما يساوى ثلاثين ألف جنيه .

سيعلمنا ذلك أن نحترم العمل اليدوى وقد بدأ هذا فعلا وان كان هناك بعض الجيوب الأولى من ورثة القديم .

والناس عندنا يختلفون ، منهم من يستنكر المهاجرة والسفر الى الخــارج ويكاد يراه عملا غير وطنى ، لأن الوطن أولى بأبنائه وبجهودهم ومواهبهم • وقد علمتهم البلاد فى معاهدها كى يخدموها ، وتبدو وجهة النظر هذه فى مسلسلات التليفزيون، وآخرون يرون غير ذلك من حيث ان المغادرين يوثقون العلاقات مع الشعوب الأخرى ، وخاصــة الشعوب العربية والاسلامية • والحكومة ، مع هؤلاء ، فهى تيسر الهجرة وتوفد المعارين ، وهم الى جانب ذلك يخففون الأعبــاء عن بلاد اكتظت بالســكان وتعانى أزمات تسببها كثافــة الســكان ، ويشيد المســئولون بما تجنيه البــلاد من العمــلات الصعبة الناتجــة من مدخرات المصريين العاملين بالخارج ، فالمسألة محيرة من جميع الوجوه وجيلنا هو الضحية • وقد كان آباؤنا وأجدادنا مستريحين من العناء ، فهل نقول ان التقدم والتكنولوجيا لعنة هذا العصر •

أنــا محتار وأخشى ما أخشاه أن تتركنى « منال » الى من تجد عنده الشقة وربما كان عنده غير ذلك من المغريات ، أما أنــا فليس لدى الا الحب •• الحب المفلس •

تقول لى : اصمد وكافح •

سأفعل ، ولكن من يضمن لى الحب ؟

مـــذكرات ميت

أنتم سخفاء أيها الأحياء ..

لا أقصد شتيمتكم ولا يمكن أن أقصد ذلك لأنى الآن مجرد من دوافع الشتم والسباب التى كانت فى وأنــا بينكم حتى فى عالمكم ، أنافس وأناضل وأعمل للظهور على الآخرين وأبدى تفوقى ولأنى أرى تلك الدوافــع من السخف الذى برئت منه ولاتزالون أنتم غارقين فيه .

انما أقصد وصفكم وصفا موضوعيا خاليا من أية رغبــة فى ايذائكم ، بل على العكس أراكم تستحقون الرثاء والعطف لمــا أنتم فيه من حياة سخيفة .. يقتل بعضكم بعضا ، ، أفرادا وجماعات وتثيرون فيما بينــكم الحروب ، وتسمون القتــلة أبطــالا .

ولو صح البكاء لبكيت عليكم . ولكن البكاء أيضا من سخافاتكم ، البكاء المنافق مفهوم أمره واما الصادق فانه لا ينفع

ولا يشفع .. وأكثره بكاء على ما فات الباكى ـ فى حالة البكاء على ميت ـ من جدوى كانت تعود عليه فى حياة المتوفى ولو كانت الائتناس به والشعور برفقته .

وأتتن أيتها النساء الحيات .. الحمقاوات .. لماذا الصوات والصراخ ولطم الخدود وشق الجيوب والتنيل بالنيلة الزرقاء ؟ أليس من السخف ما تصرون عليه من لبس السواد ولزوم الحداد سنة أو أربعين يوما أو أية مدة من الزمان . تعدن بعدها وكأن ما كان .. وقد تتزوج من مات زوجها وسار فى خبر كان .. وتستبدل بمظاهر الحداد التزين والأصباغ على الشفاه والعيون والخدود .

الله أعطى ، الله أخذ ، فهل تحتجون عليه لأنه أخذ ما أعطى، أخذ الأمانة التى أودعها اياكم .

يا ناس اختشوا .

ليست هذه أيضا شتيمة ، انما هى أمر بما ينبغى ، وأنا قبل أن أموت كنت مثلكم حيا سخيفا .. أتعرفون انى مت كمدا اذ نالنى الاعياء وأصابتنى الأمراض والعلل لفوات ترقية الى درجة فى الوظيفة .. نالها زميل فحقدت عليه ومت بحسرتى.

ما الفرق بيننا ـ فى الحياة ـ وبين حيوانين مفترسين يختصمان على فريسة ويتصارعان حتى يصرع أحدهما الآخر ؟

وها كم قصــة أخرى من سخافاتى وأنا حى وسخافات زوجتى بعد موتى ٠

والعجيب انكم تعتبرون الذى فعلته مثالية ٠٠ وتلقبون مثيلاتها بالأم المثالية ٠

خلفنا بضعة أولاد ٠ وحددنا لكل منهم طريقا معينــا فى التعليم وكان من نصيب أحمد أكبر الأولاد أن يلتحق بكليــة الهندسة ويتخرج فيها حتى يصير مهندسا (قد الدنيا) حددنا له ذلك فى أمانينا وصرنا ندعوه منذ الصغر الباشمهندس ٠

ثم مت وهو لايزال طالبا فى المرحلة الثانوية من التعليم ٠

وعندما حصل على الشهادة الثانوية اقترح بعض المشفقين على الأرملة وأولادها أن يعين أحمد فى عمل ما كى يعول الأسرة أو يساعد على الأقل ، الى جانب « المعاش » الضئيل الذى رتب للأسرة بعد موتى ٠

ولكن زوجتى رفضت رفضا باتا وأصرت على أن يتم تعليمه فى الجامعة طبقا لرغبة المرحوم الذى هو أنــا ولمــا رسمت له ويصير مهندسا ولابد أن تحقق رغبته ، حقا كانت هــذه رغبتى فى الدنيا والمرأة مخلصــة على حسب وجهة نظرها ، ولكن لكل حال مقتضياتها ولا أدرى أى ضاع لأن ترهق المرأة نفســها وتكب على (ماكينة الخياطة) ليلا ونهارا لكى يكون (بسلامته)

مهندسا ولكى يكون اخواته كذا وكذا والعمل فى ذاته أعنى الخياطة بالأجر لا غبار عليه بل هى تحمد من أجله على خلاف التظاهرات الكاذبة بين الناس ، ولكنها أرهقت نفسها ، شمرت عن ساعديها وانهمكت فى الخياطة انهماكا كليا حتى أصابها الاعياء واصطلحت عليها الأمراض .

وفى خلال ذلك كانت تفرط فى تدليل الولد زاعمة ان هذا التدليل يرضينى وتنظر الى صورتى المعلقة بالجدار فى خلوتها وتناجينى بأنها تعمل كل ذلك من أجلى وتنفيذا لرغباتى.. وهى مخلصة ما فى ذلك شك ولكنها الدبة التى قتلت صاحبها بالحجر الذى أرادت أن تهش به الذباب عن وجهه لأنها تحبه .

***

تخرج الولد من الجامعة وصار مهندسا وعين فى وظيفة وعمل الى جانب الوظيفة الحكومية أعمالا أخرى وكسب ما كسب لنفسه واهمل أمه واخوته كل الاهمال .

تطلع الى الزواج من ابنة رجل غنى صاحب سلطة كى يستفيد من نفوذه وماله وتم له ما أراد أهله الفقراء وتنكر لهم مستنكرا أن تخيط أمه للناس بالأجر .

أؤكد أن ما بذلته زوجتى لم يرضينى برغم اخلاصها

بل أكثر من ذلك لو لم يكن هناك أولاد يحتاجون الى رعايتها ما كان عندى أى مانع من زواجها برجل آخر .

نحن هنا أعنى فى عالم الأرواح لا يعنينا شىء من ذلك ، أنا أرى ما تفعلونه أيها الاحياء السخفاء كأنى اتفرج عليكم واستدرك فأقول لا تطمعوا فى ان تعلموا شيئا عنى وعما يدور فى عالمنا فهذا غيب لا ينبغى لكم أن تعلموه ، وليس فى استطاعتى ان اكشفه لكم . والحقيقة ان ما يزعمه الكثير منكم وخاصة الأدباء والمفكرين من ان الحرية هى ان يقول الانسان كل ما يراه دون قيد ــ الحقيقة ان هذا غير صحيح فليس من الممكن أن يكتب كاتب أو يقول قائل كل ما يراه ويعرفه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

زوجتى تلك الأرملة مسكينة .. تحطمت لسوء ادراكها حقيقة الأمور وانساقت فى مشاعرها وأوهامها ولو أنها أقتصدت فى تدليل ذلك الولد واقتصرت فى تعليمه على اتمام المرحلة الثانوية ثم انخرط فى عمل يكسب منه رزقه سواء فى الحكومة أو فى غيرها لو انها فعلت ذلك لوفرت على نفسها تلك المتاعب ، بل لكسبت الولد نفسه ، كانت تشركه فى المعاناة ولا تجعله يشعر بدواعى التعالى والخزى من أن تكون أمه خياطة .

وفى امكان الانسان أن يتعلم ويتثقف دون أن يلتحق بكلية من الكليات ولا يخفى ان أكثر المتخرجين فى الجامعات

جاهلون حتى فيما هم فيه مختصون اذ اكتفوا بالحصول على الشهادات كوسيلة من وسائل الحياة المرموقة .

ولدنا الباشمهندس ، واحد من أولئك ، ولو كان على شيء من الثقافة الحقيقية ما كان كما هو كائن وما هو الا واحد من عالمكم المتخبط فى الجهالة والاوهام وسوء الادراك لقد حقق ما كنت أرجو له وأنا حى جاهل ولكنه لم يحقق ما أوده له الآن وقد عرفت ما لم أكن أعرف .

الآن أقول وأعترف أنى كنت أحمق جاهلا وأنا حى .. حينما أشعر فى قرارة نفسى أنه ينقصنى شيء أردت تحقيقه فى أولادى ذلك الشيء هو التعليم أو اتمام التعليم فى الجامعة أو معهد عال وكان كل شيء حولى يشعرنى بأن هذا نقص فى المرتب والدرجة ونقص فى القدر والمنزلة وقد اضطررت الى أن أسعى للتعيين فى وظيفة بالشهادة الثانوية فقر فى نفسى أن أعوض ذلك باتاحة الفرصة لأولادى الفرصة التى لم تتح لى ، كنت اتشوق الى أن يقال انى أبو المهندس أو الدكتور أو وكيل النيابة وقد فاتنى أن أكون واحدا من هؤلاء .. وجه الحماقة فى ذلك هو الاعتقاد أو الزعم أن العلم والثقافة محصوران فى الجامعة ، وليست المسألة فى الواقع الا مظاهر اجتماعية من جهة ومن جهة أخرى تعد الشهادة العالية بمثابة (بطاقة تموين) مميزة اذ يمنح حاملها مرتبا أكبر .

وهذا وذاك حماقة المجتمع كله وزعم باطل فقد قرأت وتعلمت من على « سور الأزبكية » العتيد فى القاهرة الحافل بالكتب الرخيصة الثمن الغالية القيمة ، تعلمت من هذه الكتب ما لم يكن يمكن أن أتعلمه فى أية كلية ، هذه الكتب لا أزال احتفظ بها وأعود اليها لأنى أحببتها ، واسأل أى خريج جامعى عن كتبه الجامعية فلن تجد الا أنه رماها وتخلص منها عقب النجاح .. كانت مفروضة عليه لتحقيق الغرض ، وقد تحقق فلماذا هى ؟

هذا ولدى « المحروس » تخرج فى كلية الهندسة وحصل على الهدف المقصود (البكالوريوس) ماذا قرأ غير الكتب المتخصصة فى الهندسة .. هذه ـ نعم ـ تكسب قدرة فى التخصص ولكن ما يسمى بالثقافة العامة شىء آخر ، ولاشك ان القراءة الواعية تؤثر فى نفس الانسان وتحكم سلوكه وتوجهه ، بحيث يصح ان تطلق عليه كلمة « مثقف » .

كنت أشعر بالضآلة وصغر الشأن فى الوظيفة ازاء الذين حصلوا على الشهادات الجامعية ونالوا الدرجات العليا برغم ما قرأت وتعلمت من اطلاعى الحر وكل ما حولى من المظاهر الاجتماعية يقول لى انك لاشىء لانك لم تتخرج من الجامعة أو معهد عال ولم تشغل مركزا ذا قيمة .

وتلك حماقة عامة فرضت على وعلى أمثالى من ذوى الخبرة وذوى الادراك السليم فنحن فى نظر الناس غير مؤهلين .

أما الآن وأنا فى العالم الآخر ــ فقد تبين لى أن ذلك كله عبث فى عبث وسخافات ما بعدها سخافات .

والسلام عليكم أيها الاحياء السخفاء .

دمعة على عنتر

أعدت مائدة الغداء وجلسنا اليها صامتين فاترين ، نحس أن شيئا ناقصا ، هو « عنتر » كلبنا المحبوب ، وقد تعودنا أن نأكل وهو يطوف بالمائدة يهز ذيله ويتمسح بأرجلنا ، وخاصة رجلى ولدى « تامر » الذى يرمى اليه بما يحب من الطعام فى سخاء ، وأحيانا يتغفلنا : ينظر يمينا وشمالا ليتحقق ان أحدا لا يراه فيرمى اليه قطعة لحم .. فاذا لمحته أمه نهرته وحثته على أن يأكل اللحم ويرمى العظم للكلب .

نهاية الأمر أن « عنتر » قد مات قتله صباح اليوم أحد المكلفين بمكافحة الكلاب الضالة ، وعلم الله ان « عنتر » لم يكن كلبا ضالا ، وان لم يكن فى رقبته الطوق الجلدى الذى يدل على انه ينتمى الى صاحب قد استخرج له « رخصة » .. كان عنتر ينتمى الينا برغم ذلك .

مسكين عنتر ، ونحن أيضا مساكين .. لاننا فقدناه ،

فقدنا أنيسا وحاميا ، حمانى مرة من شر مستطير سأحدثك به بعد قليل .

قمنا عن المائدة حزانى صامتين ، منا من لم يذق الطعام ، ومنا من لاك بعضه وازدرده بدون شهية ولم يواصل : تجمدت الدموع فى أعيننا ، كأننا نخشى أن يقال اننا نبكى على كلب ..

قالت لى زوجتى عندما عدت ظهرا :

— لقد صوب اليه البندقية ، وأطلق عليه رصاصة صرعته .. هتفت به :

— شلت يمينك .. ألم تجد غير عنتر ؟

الواقع أنى لم أدر ماذا قلت بالضبط ، فقد غبت عن الوعى ..

قلت لها وأنا حزين :

— لماذا لم تخبئوه عن أعين أولئك القساة ؟

— كيف كنا نفعل وقد خرج عنتر الى ذلك الرجل ينبح بشدة ويهجم عليه يريد أن يفترسه ..

— لابد أنه توجس منه الشر . عنتر لم يكن له مثيل فى توجس الشر .

كأنه يشم رائحته ، ليست حاسة الشم عنده قاصرة على الأشياء المجسمة ، بل تشمل ما يدور فى نفوس الناس !

أنا شخصيا مدين بحياتى له : لتلك الخاصية فيه ، كما سأحدثك بعد قليل ، أمهلنى حتى أفضى اليك بنبذة وجيزة عن حياته : حياة الفقيد العزيز .. من حيث علاقته بنا ، لم أكن أحب اقتناء الكلاب ، ولم اقتن كلبا قبل عنتر ولا بعده عدت يوما الى المنزل فوجدت جروا ، وسألت مستنكرا :

ــ ما هذا ؟ ومن جاء به ؟

قالوا :

ــ ان « تامر » تعلق به وأصر على استبقائه .

و « تامر » ولدى الصغير رغباته مستجابة ، ولكنى فى لحظة الاستنكار قلت :

ــ هذا كلام فارغ .. أخرجوه حالا . وهموا باخراجه ولكن الولد الصغير تشبث به وبكى . وأنا « اشخط وانطر » ولكنى ضعيف أمام تامر ولا يسعنى الا تلبية رغباته ..

أطلقت عليه اسم « عنتر » رافضا الأسماء الأفرنجية التى تسمى بها الكلاب وقلت : فليبق من أجل تامر .

ونشأ عنتر وتامر معا ، يلعبان معا ، ويتواثبان معا ، لا يكادان يفترقان .

قلت لزوجتى :

ـ وهل رأى تامر ما حدث ؟

ـ لا ، كان نائما ، ولم يعلم حتى الآن .

فهو لايزال نائما .

كان ذلك لحسن الحظ ، ولا تسأل عما حدث بعد ذلك حين علم وفهم ـ على قدر علمه وفهمه ـ ان عنتر ذهب ولن يعود .. كأنما كانا توأمين ومات أحدهما وبقى الآخر فى حسرة .. ولحسن الحظ كذلك أن الأطفال ينسون بسرعة ، فلم يبق فى ذاكرة تامر بعد مدة شيء عن عنتر ، ولكن ذاكرتى تعى كل شيء ، وكيف أنسى أنى ـ كما قلت ـ مدين بحياتى لعنتر ..

وهاك الحكاية :

كنا نسكن فى ضاحية منعزلة عن العاصمة ، بينهما فراغ من مزارع واسعة يقطعها قطار حديدى يسير بين الضاحية والعاصمة ، ليس ذلك الفراغ موجود الآن فقد زحفت اليه المبانى وملأته ، ومع هـذا مازالت أزمة الاسكان قائمة .

ما علينا .. كان بيتنا قائما وحده بين أرض فضاء لم تبن بعد ، وفى ليلة كنت وحدى هناك ، ليس معى الا عنتر .

دق الباب ، ونبح عنتر . تراخيت قليلا عن الذهاب الى

الباب وفتحه ، واتصل دق الباب . وارتفع نباح عنتر ، وصار يجرى بين الباب وبينى كأنه يحول بيننا .. أو كأنه يقول لى : لا تفتح الباب .

ولكن لابد ان افتح الباب ، وخاصة لمـا تعذر سـماع صوت من يدق ، لنباح الكلب الشديد والذى يشبه العواء .. وفتحت فوجدت رجلا يرتدى ثيابا بلدية وبيده عصـا غليظة ، قال لى أنه من الشرطة ، ويريد أن ينبـه على ضرورة وضـع مصباح أمام البيت فوق الباب ، لأن الشارع مظلم لم تشـمله الانارة بعد ..

كان يتكلم بصوت عال كى اسمعه ، لأن عنتر وقف بيننا مستمرا فى نباحه الشديد ثم انصرف الرجل بعد أن أبديت له الموافقة على وضع المصباح .

ثم تحدثت بعد ذلك الى من قال لى :

ـ أحمد الله على سلامتك ..

ـ كيف ذلك ؟ الحمد لله على كل حال ، ولكن مـاذا تقصـد ؟

ـ ان الرجل ليس من الشرطة ، ولولا الكلب لأنفذ فيك باقى خطتـه ..

ـ خطته ؟ أى خطـة ؟

ـ ألم تقرأ فى الصحف عن حوادث مشابهة ، اذ يفتح صاحب البيت أو صاحبته فيبادره الرجل بضربة فوق رأسه فيغيب عن الوعى ويسقط على الأرض ، وقد تكون الضربة قاتلة ، على حين يسرع الرجل المقتحم الى اغلاق الباب ، ثم يدخل فيسرق ما تطوله يده ويسرع بالفرار ..

ـ آه .. قلما أقرأ تلك الحوادث .

ـ يجب أن تقرأها لكى تلتفت الى مثل ذلك .

ـ الآن فهمت نباح عنتر الشديد وموقفه من الرجل ، حتى جعله يتراجع عن تنفيذ خطته خوفا منه .

وأردت أن أستوثق من حقيقة الأمر ، فذهبت الى قسم الشرطة الذى يقع منزلنا فى دائرته ، وسألت ، وأجبت بانهم لا يرسلون أحدا يمثل ذلك .

ولما عدت الى البيت ناديت عنتر ، فهرع الى يهز ذيله ، ووددت لو يفهم الكلام فأشكره ، وأقول له أنى مدين له بحياتى، ولكنى شكرته عمليا ، اذ مسحت على رقبته بحنان وعطف وحب ، وجاء « تامر » فأخذته بالحضن وقبلته ، ورأيت ان له هو أيضا فضل عنتر ، اذ كان سببا لاقتنائه ، ولولاه ما رضيت ببقاء الكلب عندنا .

***

بكت زوجتى يوما بعد حادث موت عنتر اذ تذكرته حين
تناثرت منها الدجاجات وشردت من الحظيرة التى أقمتها لها
حديقة المنزل الصغيرة •• فتحت باب الحظيرة فخرجت الدجاجا
تجرى هنا وهناك ، وهى تعدو وراءها لتمسك بها وتعيد
الى الحظيرة ـ تذكرت عنتر وبكت لأنه كان يجرى ورا
الدجاجة التائهة ويحملها على العودة الى الحظيرة دون أن يمسك
بها •• لا تدرى كيف ؟

***

ويوم مات عنتر وبعده بأيام شعرنا بفراغ حزين •• لم
أملأ ذلك الفراغ بعد بأى كلب •• فأنا كما قلت لك لا أحب
اقتناء الكلاب ، وكان عنتر فلتة •• كان شيئا آخر لا يعوض ••

كنا نذكره خاصة عندما نجلس الى المائدة لتناول الطعام ،
يمضغ الواحد منا قطعة اللحم حتى اذا بلغ العظم تلفت حوله
بحثا عن موقع عنتر •• فلا يجده ، فيضع العظم على المائدة
وقد تغير طعم اللحم فى فمه •• صار مرا وكان طيبا •• وكانت
زوجتى تذكره عند حظيرة الدجاج فتفر من عينها الدمعة ••
أما « تامر » فقد ظل يذكره عدة أيام ، ويناديه ، ويسأل عنه ،
ويعلله المجيب بأن عنتر ـ وان كان قد ذهب ـ سيرجع
قريبا •• ثم نسى تامر عنتر ، وليتنا أطفال فننسى ••

كانت « الجنازة حارة والميت عنتر » وليس موت عنتر بالأمر الهين .. فليكف الساخرون على سخريتهم وليغيروا أو يلغوا هذا المثل : « الجنازة حارة والميت كلب » من أمثالهم ، فهو مثل كاذب ، على الأقل بالنسبة الى عنتر .

واحسرتاه عليك أيها الفقيد العزيز !

حماقات الصبا

عبد الهادى أفندى .. يا عبد الهادى أفندى ..

من المنادى ؟ أدفع عمرى الذى أشرف على ارذله .. لقاء هذه الكلمة « عبد الهادى أفندى » التى تذكرنى بماضى سحيق . لست الآن أفنديا ، فقد لقبت بعد ذلك بألقاب أخرى يخاطبنى الناس بها : سيد ، أستاذ ، حاج ، وان كنت لم أحج ..

أعادنى ذلك الصوت الى الشباب أو الى ذكرى الشباب ، حين كنت « عبد الهادى أفندى » انه صوت نسوى رقيق ليست نبرته غريبة عن أذنى وان بعد العهد ..

ولهذا قلت أدفع عمرى ... الخ .

وما عمرى ؟ وكيف أدفعه ؟ هل له قيمة ؟

دع هـذا ، فهو كلام تقوله ولا تدقق فى معانيـه .. كلام والسـلام .

المهم هى .. التى تناديني فى الشارع ، التفت ورائى ، فرأيت امرأة تبتسم لى ومعها بنت : فتاة عرفت فيها « سعاد » .

قصدت اليهما ، وتأملت المرأة فاذا هى « سعاد » لا البنت ، فعل بهـا الزمن أفاعيله ، تضخمت بعض الشيء ولم تعد تلك الفتاة الرشيقة التى عهدتها وصارت ملابسها تميل الى الاحتشام، وان كان أحمر الشفاه لايزال مطبوعا على شفتيها .

قالت لى :

ـ كيف حالك يا عبد الهادى أفندى ؟

عرفتك وانت ألا تعرفنى ؟ أنـا سعاد .

ـ نعم ، سعاد ، أهلا بك يا سعاد ، ومن هذه ؟

ـ هذه سعدية ابنتى .

قلت وقد انتبهت تماما :

ـ هى ابنتك اذن ، انها تشبهك حتى لقد ظننتك اياها :

ـ عجبا : هل أكون مثلها لم أكبر .. ؟

ـ انها ظريفة جميلة كما كنت انت .

فأطرقت كأنها تخجل ، وقالت :

ـ ايه .. دنيا .. لا تبقى أحدا على حاله .

قلت كاذبا مجاملا :

ـ ما هذا ؟ انك لا تزالين فى الشباب :

***

تعلمت سعاد نصف تعليم ، لم تمكث فى البيت تنتظر العريس ، بل راحت تجوب الشوارع بحثا عنه ، وتصادق البنات اللائى لهن أخوة فتيان ، وكنت أنا أحد هؤلاء ، تعرفت بأختى وجعلت تتصدى لى .. لم أقع فى شراكها كعاشق مدله . كنت وزملائى الشبان نتحاكى عنها وعن مثيلاتها ، ونذكر أشياء تمسهن وان كانت الأخت لا تذكر بسوء أمام أخيها الذى هو آخر من يعلم .. ولم تكن الأحاديث كلها صحيحة فكثير منها مخترع ووليد خيال ، يقصد صاحبه التظاهر بأنه « دون جوان » العصر فى غزو النساء ..

وكان الشاطر الواعى منا من يتسلى فقط دون أن يقع وتجر رجله الى الزواج وعلى هذا الأساس كانت علاقتى بسعاد .

قال لى صديقى فتحى :

ـ سعاد صاحبة أختك ..

ـ مالهــا ؟

ـ دايرة على حل شعرها .

وكان فتحى يجيد الغزل فى الطريق ، اذ يتعرض للواحــدة وهى ماشية ويمطرها بعبارات الحب والغرام وهو يمشى بحذائها أو وراءها ، وكانت كلمة « يا باشا » تتصــدر قاموس الغزل اذ ذاك ، على أن المسألة ليست كلمات تقال فقط ، وانما هناك أيضا الحركات التى قد يكون منها تلعيب الحواجب ، وان كانت هذه الحركة « بلدى » والمهم صفاقة الوجه مع الابتسام وألا يعبأ بكلمات الصد مثل « ياسم » بل يعد هذه ولالالا تلبث صاحبته ان تهفو اليه .

وأنــا لا أحسن شيئا من ذلك ، وأنــا لهذا ناقم على نفسى وأريد الخــلاص من هذا العجز المشين فى عالم الفتيان .

ولذلك عزمت على أن اتخذ فتحى أستاذا لى فى هــذا الفن .. **قلت له :**

ـ ان سعاد وصاحبتها يخرجن فى « العصارى » يتمشين ويشممن الهواء وأرى أن تتعرض لهن .

ـ وجب !

مشينا وراءهن ، وهن يسرن لا يعبأن بنا ، يتهادين كأنهن يرقصن على ايقاع الغزل :

كنت أمشي وكأني ذيل لفتحي ، وكلما حاولت أن أنطق بكلمة مثله انحبست في فمي ، ولكني تشجعت وأردت أن أثبت أني لست « لخمة » وتقدمت ازاء سعاد .

جاهدت نفسي حتى قلت لها :

ـ يا باشـــا !

لم أسمع لي صوتا كهذا الصوت ، انه صوت غريب عني ، تمنيت ألا تسمعه سعاد ، هي تعرف صوتي ولاشـــك ، فليتها تظن ان شخصاً آخر هو الذي يقول لها :

يا باشـــا !

وعدنا أنـــا وفتحي نجر أرجلنا وكان كلامنا يلبس خفي حنين .

***

كان معظم تلك « الغزوات » يبوء بالفشل ، وعندما يرى الفتى نفسه لم يجن منها شيئا يلجـأ الى الخيال .. يريد أن يثبت أنه بطل في هذا المجـال ، بطل في صيد الغزلان وايقاع

الحسان فى شراكه ، فيلفق وقائع يزعم انها وقعت ، ويصدقه الآخرون برغم انهم يكذبون مثله •

عندما تزوجت ـ وكنت ما ازال على تلك الحال ـ أردت أن اتظاهر أمام زوجتى بمثل تلك البطولة زاعما أن ما وقع •• وقع وانتهى قبل الزواج •• قلت لها كاذبا :

فى مغامرة من مغامراتى المـاضية أوقعت فتاة فى شباكى ، وتفننت فى حكايتى مستمد ما أتخيله من كلام أحد الشـبان المغامرين ، ولا أدرى هل وقع له ذلك فعلا أم كان من الكاذبين فأنا كاذب عن كاذب !

استفظعت زوجتى ما فعلت أو ما زعمت أنى فعلت •• ودهشت أنـا اذ قابلت حكايتى بعبارات الاستنكار الشديد • وكنت أتوقع منها عكس ذلك •• ورجعت الى نفسى ، فشعرت بالخزى أمام زوجتى ووقعت فى حيرة •• ان نفيت ما قلت تكشف لها كذبى ، وان سكت كنت عنـدها ممن يعتدون على بنـات الناس •• فآثرت الثانية وأمرى الى الله •• وكم فعلنا من الآثام وجعلنا أمرنا الى الله •

***

ونعود الى السيدة الكبيرة وابنتها الصغيرة الواقفتين معى

فى الشارع ، عينى على البنت لا تكاد تفارقها .. ألا ليت الشباب يعود !

لابد أن سعاد نسيت أو تغاضت عن حماقاتى الصبيانية ، فهى الآن تنظر الى باحترام ، وقد قدمتنى لابنتها بعبارات تتضمن انى على خلق كريم ، وقد يكون هذا الآن حقا ، ولكنى لم أكن كذلك أيام الشباب .

وتساءلت فيما بينى وبين نفسى : أيكون خلقى الآن كريما لعجزى ؟ لقد عرفت ما لم أكن أعرف ولكن لا قدرة لى على العمل بالخبرة التى اكتسبتها .

يقولون : آه لو عرف الشباب .

وأقول : آه لو قدر الشيوخ !

قالت لى السيدة سعاد دون أن تتلفظ :

ـ كانت أياما حلوة بحماقاتها ، وربما كانت الحماقات هى التى تحليها !

قلت لها دون أن أتلفظ :

ـ والله زمان يا سعاد .

الحب من بعيد

نظرت الى نظرة بليغة قالت لى بها كل شىء وعزتها بابتسامة فصيحة كان من فصاحتها ثنايا مرصوفة باقية برغم تقدم العمر ، وأكدت ذلك باستبقاء يدى فى يدها مع ضغطة خفيفة ..

وماذا قالت تلك النظرة ؟

لم تتلجلج ، ولم تفأفىء ولم تتأتىء ، كما يفعل اللسان .. لم تقل : لا أدرى كيف أقول ومن أين أبدأ .. ولم تتلفظ بما يمكن أن يكون فيه ما تندم عليه ، أو ما لا ينبغى قوله ، أو كان غيره أحسن منه أو ... الخ :

بل قالت :

ـ لقد ذهب العمر هباء الى متى تظل تتجاهل ؟ أنا أحبك وأعلم أنك تحبنى ولكنا كتمنا الحب ورأيناه أعظم من أن

نبوح به .. كان الشباب قادرا على الكتمان المدل .. معتزا بقوته والآن ألم تضعف مثلي ؟ لماذا لم تتزوجني ؟ هل فكرت في زواجي ؟ لو حدث ذلك لكنت الآن زوجتك .. زوجة المهندس وأم أولاده ، تعيش في المدينة ، كنت أصير « بندرية » بدلا من هذه الفلاحة زوجة الفلاح . طالما رأيتني أسوق البقرة الى الموردة لأسقيها أو أعود بها ، ابتسامتان خفيتان من بعيد . أو صباح الخير من قريب .

***

كان قد جاء الى القرية في احدى زياراته ، وجاءت تسلم عليه كعادة الجيران التي جرى عليها أهل القرية ، تلبس جلبابا قاتم اللون محتشما وعلى رأسها خمار أسود تغلف بطرفه يدها وهي تصافح رجلا غريبا ، ولكنها الآن لم تفعل ، بل صافحته كأنه ليس بغريب ..

أحبها ، نعم صدقت ، كانوا جيرانا ، وكانت الى هذا تذهب مثله وهما صغيران الى « الكتاب » مع الصبيان ، لكي يتعلموا ويقرأوا القرآن ، ولم يكن يحب في الكتاب غيرها ، كان كل شيء هناك قاتما وكانت هي الاشراقة الوحيدة .

وفجأة سمع أمها تحادث أمه ، جارتان تتحادثان ، كانتا تقولان : انها كبرت وصارت عروسا ، وستزف عما قريب .

خرطها خراط البنات فصار لها جسم الأنثى الفاتن ، النهدان برزا ، والقوام يتثنى كالغصن الرطيب يحمل أشهى الثمر .

سيأخذهـا العريس المحظوظ ، أما هو فما أبعد فـكرة الزواج عن عالمـه .. هو فى مثل سنها ، ليس للذكور خراط ، فمازال يبدو صغيرا ، وليس الزواج لعب عيال .

وربما كان تطلعه الى حياة أخرى فى المدينـة يبعد عنه التفكير فى الزواج ببنت من القرية ، فالعقل هنـاك مع التقدم في التعلم ، والوجدان هنا معها .

***

وهب أنى تزوجتها ، تصور ذلك فقط ، أنـا لا أستطيع أن أصنع « سـيدتى الجميلة » كما تخيل صـاحب القصـة المشهورة والذين حاكوه أو اقتبسوا منه .. لا أستطيع صنع دجاجة فضـلا عن امرأة دع عنك هـذا فهو ليس فى الواقع ودع ما يقولونه عمن تزوج فتـاة صغيرة : أخذها حتى يطبعها بطباعه ويعودها على عاداته ، هذا كلام .. ومن يفعل يخدع نفسه قبل أن تخدعه الصغيرة .

وثانيا .. هل كان يمكن أن يتشرد قيس بن الملوح العامرى ويهيم فى الأودية والقفار وينشد الأشعار لو تزوج ليلى ؟ هل كان يصير مجنونا .. مجنون ليلى ؟

وهل كان قيس الآخر يموت فى حب لبنى لو لم يطلقها ارضاء لأبيه ، الذى جلس فى الشمس وأبى أن ينتقل الى الظل حتى يطلق ابنه وزوجته الحبيبة •••

وهل كان روميو يروح شهيدا للغرام لو تزوج جولييت ؟

هل كانت توجد أصلا تلك القصص لو صارت الحبيبة خليله أو استمرت زوجة ! فقط كنت تستريح من قراءة هذا « الهذيان » لو تزوجتها :

اذن فليحى الحب من بعيد ••

وهكذا كان ••• ظللت عمرى أحبها •• أغذى القلب بطيفها غائبة ورؤيتها حاضرة وسأظل كذلك ما بقيت الحياة •

ولحسن الحظ تزوجت فى الجيرة تخطر حاملة جرة الماء التى ملأتها من الترعة عائدة الى المنزل وقد أذهب الى حيث تملأ الجرة كأن الأمر صدفة •• وأعاونها فى حمل الجرة وأظفر بابتسامتها الشاكرة ••

وأحيانا أراها تسوق بقرتها الى مورد الماء لتسقيها ، ما أحلى بقرتها •• صفراء فاقع لونها تسر الناظرين •

وأتذكر أياما من الطفولة اذ كنت أضع لها « قطرة » فى عينيها وهى لا تزال صغيرة لم يتكور فى صدرها شىء بعد ••

كانت تضع رأسها فى حجرى مستلقية وأنا أسند الرأس الجميل وأشحذ سهام العينين بسقيهما بالقطارة •• وكانت تأتى الى طائعة عندما أزعم لها أن عينيها تحتاجان الى قطرة ، لا أعبأ بتهديد أمى وانها ستبلغ أبى أنى أحضر زجاجة القطرة من مكانها وألعب بها مع العيال •• مع البنات « يا بتاع البنات » هكذا تقول أمى وفى صوتها نبرة اعتزاز بى خفية •

وأياما من الشباب الأول تذكرتها اذ هى جالسة أمام الفرن فى بيتنا تخبز •• كبرت ما شاء الله •• ما أحلاها وقد حسرت عن ساعديها ولم يبق على رأسها الا المنديل « أبو أوية » نسوة أخر يخبزن هكذا ولهن مثل ذراعيها البضتين ورقبتها البضة ولكن هى بالذات يشع منها ــ من جملتها ــ اشعاع لا يوصف •• ليس يشع من غيرها •

كانت قد عرفت اننا سنخبز • سنوقد الفرن • والخبر ينتشر بين الجارات ، فمنهن من تأتى ــ عندما يعمل الفرن ــ حاملة فوق رأسها طبقا كبيرا مسطحا مصنوعا من سعف النخيل فيه أقراص خبز الذرة الذى لا يسوغ أكله باردا فصاحبته تأتى لتجمره فى الفرن ، ومنهن من ترجو أن تضع فى الفرن بعد انتهاء الخبز قدرا من الفخار بها فول للتدميس ، ومنهن من تأتى بعض العجين ترجو أن تخبزه ، وهكذا قالت نفيسة ــ اسمها ــ لأمى :

ـ صباح الخير يا خالتى أم على ـ اسمى على ـ هل يمكن أن أخبز عندكم قليلا من العجين ؟

ـ ولم لا يا ابنتى ؟ تعالى اخبزى ، الفرن فرنك والبيت بيتك .

وأنا ، ما أسعدنى فى مثل هذا اليوم .. أجلس على برش هناك أو بردعة حمار موضوعة الى جدار قريب من الفرن قد ينطلق لسانى بكلمة أو أقول نكتة تبتسم لها نفيسة .. فأكاد أطير من الفرح .

غير مرة لم أفرح فيها ، بل على العكس شعرت بشىء من الانقباض ، عثرت على كتاب لبيرم التونسى اسمه سيد ومراته وهو قصة مكتوبة باللغة العامية ، فيها حوار ظريف بين رجل وامرأته عائدين من باريس قلت فى نفسى : اقروءه أمام الفرن لأسمع نفيسة هذا الحوار الظريف ، وجعلت أقرأ ولكن راعنى قولها :

ـ ولماذا هذه الدردشة الفارغة بعد ان عادا من السفر ؟

هل تقصد أنى أقرأ كلاما فارغا لا داعى له ؟

هذا ما تبادر الى فهمى فشعرت بالانقباض .. وطويت الكتاب .

فكرت فى الأمر بعد ذلك فاستقر فكرى على أنها لم تقصد انما هى حساسية زائدة منى ، ثم قلت فى نفسى :

ــ يا أخى وما الداعى لذلك ؟ تريد أن تقرأ شيئا ، افعل بينك وبين نفسك •

الواقع أنى كنت غرا أو قل عبيطا بصريح العبارة ، اذ ظننت ان ما أحبه لابد أن يحبه غيرى •

بقيت هكذا مشغولا بحبها طول العمر ، أنتشى بذكراها وطيفها وأنا بعيد وأسعد برؤيتها وبحديثها وأنا قريب •

لم أنس حبها قط ، وان كان يغيب عنى فى فترات انشغل فيها بشئون الأولاد ومطالب الزوجة ، وهموم الوظيفة من حيث الترقيات والعلاوات والاحتكاك فى العمل بمن يحسد ويحقد ويناوىء •

وكان حب نفيسة واحة فى صحراء ، يأوى اليها فرارا من المتاعب والمشاغل ، فهى الظل الظليل الذى يعيد اليه سكينة نفسه ويشعل فى قلبه الشمعة الدائمة •

وفى خلال ذلك كبرت وصار لى شارب وجعلوا يخاطبوننى بعلى أفندى فلم يعد لائقا بى ان أجلس على البرش عند الحريم أمام الفرن •• وأحيانا أعوض عن هذا بدعوة الى الشاى من زوجها فى بيته ، حيث تقدم هى لنا الشاى وتقول :

ـ آنستنا يا على أفندى ، لقد زارنا النبى •

ـ شكرا لك يا نفيسة ، سلمت يداك اللتان صنعتا هذا الشاى المضبوط •

والنساء فى قريتنا لا يحتجبن عن الرجال ، بل يكفى انهن محتشمات بدنين عليهن من جلابيبهن •

***

جلس لاستقبال الرجال الذين توافدوا على « المندرة » يسلمون عليه •

ولما انفض الجمع دنا منه زوج نفيسة قائلا فى شبه همس :

ـ الحقنى يا على أفندى ••

ـ ماذا جرى ؟

ـ نفيسة امرأتى •

قال وهو يكتم شعورا بالانقباض :

ـ ما لها ؟

ـ غضبت وتركت البيت وذهبت الى بيت أخيها .

أفرخ روعه فقال في شيء من الارتياح :

ـ هيه ...

ـ كنت اتفاهم مع أبيها الله يرحمه كان رجلا طيبا اما أخوها فقد قلت فى نفسى ليس له الا أنت والحمد لله جئت فى الوقت المناسب .

الى ممثلة من فتى عربى حائر

عزيزتى فلانة ..

لا أدرى هل أكتب اسمك مسبوقا بآنسة أو بسيدة ، واسمحى لى أن أدعوك « عزيزتى » فأنت عزيزتى فعلا .. أراك على الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة فاسر برؤيتك واستريح الى تمثيلك . وأشعر أنى أعرفك شخصيا بل يذهب بى الخيال أحيانا الى انك تعرفينى كما أعرفك .

ثم أعود الى حقيقة الواقع فأنى لى أن تعرفينى ؟

أظن أنه يحسن أن أقول لك بدءا : أننى شاب عربى أكتب لك هذا من وراء النجاد والوهاد وان كان البريد والبرق والطيران وغيرها قد قربت المسافات البعيدة وألغت ما يعوق أو يبطىء الاتصال بين الناس هنا وهناك .

وأضيف الى تلك الوسائل المقربة « التمثيل » فهذه الأفلام

والتمثيليات التليفزيونية والاذاعية صارت هى أيضا وسائل تقريب واتصال ولو من جانب واحد احاول ان أكمله أنا بهذا من الجانب الآخر .

ورأيتك غير مرة فى دور الفتاة المنافحة عن حقها فى اختيار الزوج فتصاغرت فى نفسى كيف أعجز - وأنا الرجل - عن أن أفعل مثلك .. مثل فتاة ؟ زوجونى ولم أتزوج بنفسى . واختاروا لى ولم يتركوا لى حق الاختيار .

قالت لى أمى :

- هذه بنت خالك أحسن البنات فتزوجها . سكت فقالت، ولم تر ما يدل على ترحيبى !

- تزوجها من أجل خاطرى ..

تزوجت بنت خالى من أجل خاطر أمى .. وأنا لا أشعر نحوها بعاطفة حب . هكذا نتزوج هنا . وقد نشعر بالحب أو الارتياح الى العشرة فيما بعد الزواج وربما لا نشعر ، وكانت ربما من نصيبى .. وأنجبت منها طفلة ثم أخرى ، قال لى أبى :

- زوجتك هذه خلفتها بنات تزوج أخرى يا ولدى لعل الله يرزقك منها البنين .

قلت فى نفسى : حسن هذه فرصة لأن أتزوج من أريد .

قلت لأبى وأنا أحاوره :

ــ لكن يا أبى الزواج يكلف .

المهور عندنا غالية جدا يشكو منها الشباب .

قال :

ــ لا تحمل هما أنا مستعد أن أمهر لك ابنة عمك .. واتحمل كل النفقات .

ــ ابنة عمى ؟ الا تدع لى الاختيار ؟

ــ أنا اخترت لك خير البنات .. انها ابنة عمك يا ولدى وأبوها غنى وليس من الحكمة أن يذهب ماله الى الغرباء .

استجبت لرغبة أبى ، كما استجبت لرغبة أمى فى الزواج بنت أخيها ، مسألة عادية عندنا أن يتزوج الرجل على زوجته فليس من حقها أن تظهر غضبا أو احتجاجا بل هى قد تخطب له كأنه أخوها .. وعليها أن ترحب بذلك وان كانت جوانحها تنطوى على الأسى ، بل لابد أن تكون كذلك .

وبدأت أنا أكتوى بنار الضرتين : دس فى الخفاء وتودد فى الظاهر .

انجبت لى الزوجة الثانية ولدا ذكرا . ففرحت به الأسرة وخاصة أبى فرحا لا مزيد عليه وفرحت أنا أيضا بمقدار

ما كنت حزينا كظيما عندما ولدت الأولى أنثى كنت أقول كأنما أعزى نفسى :

ـ كل الذى يأتى به الله « زين » .

والغريب ان النســاء القريبــات مثل الأم والأخت يفرحن بولادة الذكر كما يفرح الرجال ويمططن شفاههن أســفا عندما تولد أنثى هى مثلهن ..

***

جعلت أعانى من الضرتين ومكرهن الذى يظهر مرة ويكن أخرى ، يظهر فى صــورة شتائم وسباب تكيلهــا الواحــدة للأخرى ثم تتباكى وتشــكو فأتذكر ما يقال : ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى ، وأظن هــذا واردا فى كلام شاعر قــديم مما أقرؤه فى الكتب ، فأنا لم انقطع عن القراءة منذ كنت فى المرحلة الثانوية من التعليم وان كنت لم التحق بالجامعة اذ رفض أبى هذا وقال :

ـ لمــاذا الجامعة ؟ هل نحن محتاجون الى الوظائف ؟

ـ أريد أن أكون طبيبا .

ـ لمــاذا ؟

ـ لأعالج الناس والأهل .

ـ قالت أمى :

ـ نعم ليعالجنا .

قال أبى ينهرها :

ـ اسكتى أنت .. هذا من شئون الرجال لا دخل فيه للنساء .. وسكت قليلا ثم تابع قوله :

ـ أنـا اشترى لكم الأطباء ..

قالت أمى متشفية :

ـ يا عيب الشوم .. كيف يعالجنا الرجال ؟

رد مسرعـا

ـ اشترى لكن طبيبات .

***

كان أبى بدويا ، باع الشاة والبعير وقوض الخيمة ورحل الى المدينة فاشترى وباع واشترى وباع ، حتى صار من كبار التجار فيها ، يتاجر فى كل شىء حتى فى العمال ويستقدمهم من البلاد غير النفطية على كفالته باعتبار انهم عمال لديه ، ولكنـه يسرحهم هنا يبحثون عن عمل ، وعلى كل منهم أن يدفع مبلغا شـهريا .

وأنـا لا يستريح ضميرى الى ذلك ، وأراه شبيها بتجـارة الرقيـق .

واقتدى بعض الأهل بأبى فى مغادرة البادية .

وجاءوا الى المدينة ، منهم زوج خالتى الذى قال لى يوما :

ـ فلانة قريبتنا .

ـ مالهـا :

ـ مات زوجها وترك لها ثلاثة أطفال كما تعلم .

ـ ومـاذا ؟

ـ أريدك يا ولدى من أجل خاطرى

ـ ماذا تريد يا عمى ؟

ـ أريدك أن تتزوجها وتلم عيالها .

ـ ماذا تقول ؟ أنـا أتزوجها ؟

ـ على الطلاق ان لم تتزوجها أنت لأتزوجها أنـا .. على خالتـك .

على أثر ذلك رأيت سيارة تقف أمام دارنا ويقودها زوج خالتى وتنزل منها خالتى ملفقة بالعباءة السوداء وعلى وجههـا الخمار الأسود .

وعرفت انها خالتى من رؤية زوجها •• ان كل امرأة هنا فى زى الخروج مثل أية امرأة أخرى تمكن معرفة الشابة من العجوز بخفة الحركة أو ثقلها وبنحافة الأولى وسمن الثانيــة غالبا ، يد الصغيرة رخصــة ملســاء بخــلاف يد العجوز المعروقــة المتغضنة •

والنساء لا يعرفن مواقع البيوت ولا أين يذهب بهن فى السيارة •• انهن مثل من تخطفهم العصابات وتضــع عصابة على وجوههم أو هن كالبضاعة تحمل من هنا وتفرغ هناك ••

مكثت الخالة مع الأم ما مكثت ذهبت عندما عاد زوجها بالسيارة وأخذها قصدت أمى الى أعلى وجهها أمارات تفصح عما ستقوله :

ــ يا وليدى ••

ــ أدرى يا أمى •• أدرى سأتزوجها •

***

أنــا يا آنستى أو يا سيدتى •• وكثير غيرى من الرجــال هنا نحيا حياة مزدوجة عمليا وفكريا ، اننا نغار أشــد الغيرة على النساء لا نطيق أن يرى رجل أجنبى واحدة من زوجاتنــا أو قريباتنا أو تتكشف عليه أى تكشف ، على حين نضيق أشد

الضيق بهذه الحياة ، اذ نسافر الى بلاد عربيـة واسـلامية أخرى ونرى فيها النساء سافرات أو متخففات من بعض الحجاب الذى نفرضـه نحن على نسائنا فلا نجد فى هـذا أى بأس ، بل ان بعض نسائنا يتركن العباءة والخمار فى المطار ويسافرن سافرات بمصاحبة رجالهن •

وأكثر من ذلك نرى الممثـلات المسـافرات فى الأفـلام والتمثيليات فلا ننكر من أمرهن شيئا الا القليل •• وبعضهن من بلاد يضرب الحجاب على نسائها •

اصابتنى بلبلة من هذا الذى يسمونه « الانفصـام » على ما أقرأ أحيانا فى المجلات والصحف •

وجدتنى بين ثلاث زوجات من « الحريم الأصلى » وعدد من الأطفال لا يمـارس معهم أى نوع من التربيـة ، حديثـة أو قديمة •• ويضفى عليهم الترف بشكل يتجاوز المعقول •• فالولد بمجرد أن يكبر ويصل الى مرحلة التعليم المتوسـطة نشترى له سيارة •• وفى المداس الثانوية مشـكلة هى اعداد مكان فسيح فى المدرسة لسيارات الطلاب •

ثم أرى فى أسفارى وأقرأ فيما أقرأ ، وأسمع فيما أسمع ، عن حياة أخرى فيها رجال لا يرون بأسا من ان تعمل المرأة بجوار الرجل ، فأميل الى هذه الحياة وأراها مخرجا من ظـلام نشعر به بل تتشبع به •

اتصورك يا آنستى أو يا سيدتى زوجة لى لا أستطيع أن أرى جسمك تنهبه عيون الرجال حتى لا تبقى لى شيئا منه .. بل انك أحيانا بل فى كثير من الأحيان حبيبة للبطل يحبك وتحبينه وقد يضمك وتضمينه وقد ... الخ ، فكيف تكون زوجتى كذلك ؟ كلا .

ولكنى مع ذلك أتمنى أن تكونى زوجتى ، هل أحبك ؟ لست أدرى تماما ولكن المؤكد أنى أسر بمنظرك على الشاشة وأطرب من سماع صوتك ، وقد يكون هذا كذلك بالنسبة لأخريات ولكنك أنت بالذات تختلف نظرتى اليك عن نظرتى اليهن ، أنت التى أفكر فيها بعد أن أراها فى التمثيل تفكيرا شعوريا عجيبا ، وهذا مما يقربنى الى الحب .

لم أشعر نحو أى من زوجاتى الثلاث بعاطفة الحب التى نسمع عنها ونراها مجسمة فى الأفلام والتمثيليات والروايات ، أشعر بالعطف على الواحدة منهم عندما أراها فى حالة ضعف وانكسار ، ولكن عندما تتنمر احداهن للأخرى أبغضهن جميعا ، أرى المتنمرة وحشا ضاريا لا يختلف عن وحشية بعض الرجال الا بأنه ناعم الملمس .

طلقتهن .. أجل طلقت الثلاث وسرحتهن باحسان ، وفى احضانهن فلذات كبدى ، وهذه مشكلة .

ورحلت الى بلد آخر كى أكون بعيدا •• انتهزت فرصة عمل كلفنى به أبى فى البلد الآخر وطلقتهن ، وعزمت على الا أعود ••

الأمنية التى لا تفارقنى هى أنت زوجة لى •• فاذا استعصت – وهى مستعصية – فلا أقل من ان اعبر لك عنها بهذه الرسالة التى ان لم تصلح طلبا للزواج فاعتبريها رسالة من معجب ••

ولك يا حبيبتى – فى الخيال البعيد – عاطر التحية ودائم الحب •

أنــا الرجــل

أنــا الرجل .. أنــا سيد البيت وصاحب الكلمــة فيه .. لا ينبغى أن يعلو صوت فوق صوتى ، زوجتى موظفة ، نعم ولها راتب شــهرى ، لا أنكر ان له أثرا فى حياتنا المــادية ، ولكن أنــا الرجل .. قلت لها مرارا أن تترك الوظيفة وتقعد فى البيت ، فلم تسمع ، الحقيقــة أنى لا أغضب من رفضــها ترك الوظيفة وان كنت أتظاهر بالغضب كى أحافظ على المظهر الذى يجب أن يكون فى البيت .. فراتبى وحده لا يكفى وخاصــة بعد أن أنجبنا وتفتحت وجوه الانفاق وصار كل وجه منهــا يطــلب ويلح ، ويقول : أنــا ضرورى .. كــل من فى البيت يقول : أنــا .

الزوجة تقول : أنــا أكد وأكدح فى البيت وفى العمــل ، و « مش عاجب » .

زوجى (سعادة البيه) يريد أن أخدمه خدمة العبد للســيد ..

ما علينا ، فأنا أقوم بهذه الخدمة شعورا منى بالواجب ، بل بأكثر من الواجب .. أصحو من النوم قبله بمدة كافية لكى أحضر له الفطور والشاى حتى الغداء أقوم باعداده حين أعود من عملى — كما يعود — لا من العمل وحده ، بل كذلك من المواصلات ، أسخن ما أخرجه من الثلاجة وما سبق ان أعددته وتعبت فيه ، واذا ندت منى شكوى قال متغطرسا :

— اتركى العمل ، هل ينقصك شىء ؟

أنا كفيل بكل شىء .

واسكت على مضض ، فلا أقول له :

— وهل يكفى المبلغ الذى تعطيه لى أول الشهر وحده ؟

فأنا أضيف الى ذلك المبلغ أكثر منه .

وتبتلع الحاجات كل شىء وخاصة فى هذا الغلاء الذى أذرى بقيمة النقود .

على أنى حين أخرج فى الصباح الى عملى أشعر كأنى أستنشق نسيم الحرية ، وأتحدث مع زميلاتى ، فاتنفس الصعداء .. وقد تفضى كل منا بما عندها وتختم كلامها فى تعجب « ومش عاجب » .

***

قالت له مرة فى حالة غضب :

ـ على م هذه النفخة الكاذبة ؟

قال فى غطرسته المعهودة :

ـ أنـا الرجل .. وكلمتى هى المسموعة .

وأدار « الاسطوانة » الى آخرها .

ذهب ذهنها فى رحلة قصيرة الى الشقة المجـاورة حيث يسكن الأستاذ كامل وزوجته التى لا تعمل ، فهى « ست بيت » انه لا يقول لها مثل ما يقول زوجها : أنـا الرجل ... الخ ، بل يقول لها دائما : أنت ست البيت .. وبالاضـافة الى ذلك يساعدها فى أعمـال البيت .

ثم تتذكر أحاديث زميلاتها فى العمل عن أزواجهن . ان معظمهم مثل زوجها فى النفخة الكاذبة ، والأولى بهم أن يحمدوا الله ويسـكتوا .

قالت احدى الزميلات أن زوجها أشركها معه فى مشروع مالى تشترك فيه بجزء من راتبها كل شـهر ، ولكنه كتبه باسمه دون اسمها كشريكة ، ولمـا سألته فى ذلك أجاب : عيب ان أذكر اسم المرأة فى مثل ذلك .

وأفضت زميلة أخرى بأنها تخفى من راتبها جزءا تعين به أمها المحتاجة ، تخفيه عن زوجها حتى لا يعلم به وتكون مصيبة .

وقالت أحداهن أنها أن قالت الشرق قال زوجها الغرب ..
قالت هى : تماما مثل الذى لا يسمى .. (زوجى) . فى الصيف الماضى أردنا أن نقضى جزءا من الاجازة فى أحد المصايف ، فأسرعت بالاشارة الى الاسكندرية فقال فى حسم : لا ، رأس البر ..

وذهبنا الى رأس البر ، ليس الا لأنى قلت الاسكندرية .
وهناك أشياء تافهة ، ولكنها ذات دلالة .. كان الولدان عند خالتهما فذهب لاحضارهما فقالت له أختى :

ـ هل أرسلتك زوجتك لأخذهما ؟

فقال لها :

ـ لو قالت لى ما جئت .

***

غاب « الرجل » عن بيته عدة أيام بعد شجار و « نقار » بينه وبين زوجته ثم ترامى اليها انه تزوج امرأة أخرى .. توقعت أن تكون الزوجة الجديدة غير عاملة ، ولكنها فوجئت بأنها موظفة فهل يا ترى يكون معها سيد البيت ؟ فليكن ما يكون لا يهم وليذهب الى الجحيم ..

رمت طوبته .. وتسلت بولديهـا منه ، وعـكفت على تربيتهما ، لم تطالبه بنفقة ولم يسأل هو : وشعر الصغيران أن أباهما رماهما والتصقا بالأم مكتفيين بحنانها .

قال الولد الأكبر ـ وقد كبر ـ لجدته : أتعرفين يا جدتى ؟ فى المدرسـة أحيانا اشتبك مع أحد الأولاد فيشتمنى ويقول لى : يا ابن الكلب أو ملعون أبوك فلا أغضب .

قالت الجدة الطيبة التى تساعد ابنتها فى العناية بولديها :

ـ ولكنه أبوك على كل حال يا حبيبى .

ـ أنـا لا أعرفـه ..

ويقول الولد لنفسه كلاما كثيرا جدا لا ينطق به ، بخلاف ما كان أبوه يهذر ، لم يرثه فى هذه الناحية ، وهل يرث الابن أباه البعيد فى الصفات المكتسبة ؟ والناس تقول للزوجـة :

ـ لمـاذا تتركينه ؟ ارفعى عليه قضية .

ويتبرع أحدهم قائلا :

ـ أنـا أعرف محاميا بارعا تخصص فى قضايا الأحوال الشخصـية .

وتجزع الزوجة من ذكر القضايا والمحاكم وتتخيل الحكم بحرمانها من حضانة الطفلين فتقول :

ــ لا .. منه لله ..

***

الواقع انها تستريح الى هذا الوضع .. لاتريد منه شيئا . تفضل أن تكد وتكدح وتربى طفليها وتحب أن يكبرا بعيدا عن أبيهما ، قد وضعت كل آمالها فيهما .. يسرها دوام اهماله ، تريد أن تشهد الدنيا على ادانته ، ان لم يكن فى الزواج بأخرى ففى اهماله ولديه .

ويوما يجىء منه خطاب يقول فيه انه اشتاق الى الولدين ويريد أن يراهما سكنت رعشة يديها وهى تفتح الخطاب .

وقالت ساخرة :

ــ الآن اشتاق مجانا .

ولم يكن بد من اللقاء .. بين الأب وولديه . أعد لهما هدايا ولعبا . نظر الولدان الى الهدايا واللعب شذرا .. وقال الأكبر :

ــ عندنا مثلها ، اشترتها لنا أمى ..

وقـــال الأب :

ــ قولا لى ماذا تريدان وأنـــا أحضر لكما ما تريدان ؟

ــ لا نريد شيئا .

وكأنهما يقولان له : دعنا فى حالنا واذهب ، لا نحتـــاج الى شيء منك .. وكان الأصغر ساكتا مأخوذا بغرابة الموقف . قال له الأب وهو يحاول أن يخرجه عن صمته بالمداعبة :

ــ وأنت يا حبيبى .. ماذا تحب ؟

ــ من أنت ؟

ــ أنـــا أبوك يا حبيبى .

ــ لا أعرفك ، أنـــا أحب ماما .

كان الولد الأكبر يريد أن يقول مثل ذلك ، ولكنه خجل ولاذ بالصمت ، وقال صمته ما هو أبلغ من الكلام .. نظر اليه كشيء غـــير مرغـــوب فى بقائـــه .. ودلو يمضى ويقصر فترة الحـــرج ..

ماذا يريد منا هذا الرجل ؟ لقد رآناكما أراد ، فليذهب وليته لا يعود أنـــا وأخى سعيدان مع أمنا ، لسنا فى حاجة الى هذا الرجـــل ، ما أثقل يده وهو يربت بها على ، فليذهب .. فليذهب .

ذلك شيء مما دار بنفسه ، أما الأب فقد غرق فى حيرته لم يكن يتوقع هـذا ، كان يتوقع أن يرتمى الولدان على صـدره ويقولان : بابا •• بابا •• ولكنـه لم يظفر من أحدهمـا بهذه الكلمة ، لقد فقد هذه الكلمة وما أعظم الفقد !

زوجته الجديدة عاقر ، لم تأت له بمن يقول له : بابا •• ولكنها « تعسل » له الكلام وتخفض صـوتها فى حديثها اليه كأنها تقول له : أنت السيد •• أنت الرجل •• أنت رب البيت •• وهذا ما كان يفتقده فى الزوجة القديمة ، فكان يضطر الى أن يقوله ••

ولكن يا للعجب •• الجديدة تلين وتظهر الخضوع ولكنها فى النهـاية تفعل ما تريد والقديمة كانت تعارضـه بالكلام ، بالكلام فقط •• ولسان حالها يقول : ها أنـا ذى شريكة مساوية وعليك أن تدع هذه الغطرسة الكاذبة •

يا الهى •• فليكن أى شيء ، لأكن رجل البيت أو لا أكون ، ولكنى لا أريد أن أفقد الصغيرين ، لا أريد أن أفقد وجهيهما مدبرين وأنـا مقبل مشتاق •

***

تذكر الابن الأكبر شيئان كان قد عزم على أن يقولهما لأبيه

ان عاد ، تذكر ما شــاهده فى مسرحيــة عرضت على شاشــة التليفزيون فيها الأب يتصــل بفتاة ويتفق معهــا على الزواج والسفر الى جهة ما ، حيث يبعد عن بيته وزوجته وأولاده ويتخلى عنهم • ويعلم الأولاد بذلك •

وعلى حين يستعد الأب للسفر وقد أوهمهم انه مسافر فى عمل وعائد قريبا •

وقف الابن الأكبر الشاب فى وجهه وقال له :

ـ الى أين •• ؟ لمــاذا تريد أن تترك البيت وأولادك لمــاذا ؟

ـ من أين عرفت هذا ؟

ـ لا يهم من أين عرفته ، المهم انه حقيقة أليس كذلك ؟

ـ أنــا حر فى حياتى الشخصية •

ـ اسمع يا أبى طالمــا وقفت منك موقف الابن أمــام أبيه ، والآن حان الوقت لأن تتبادل الوضع •

ـ ماذا تعنى يا ولد ؟

ـ لا ، لست الآن ولدا •• أنــا أبوك وأنت ولدى ، وعلى هــذا أسألك ••

ـ قلت لك أنا حر فيما أفعل وليس لك ولا لغيرك أن يتدخل فى حياتى وشئونى الخاصة ٠

ـ شئونك الخاصة ! أليس بيتك وأولادك من شئونك الخاصة ؟ لماذا خلفتمونا اذن ٠٠ ؟ أو ليست مسئوليتك عن هذا البيت ومن فيه من الشئون الخاصة ؟

شاهد الولد تلك المسرحية فى المنزل مع أمه وأخيه الصغير ، وكم سروا بها لأنها « جاءت على الجرح » وخطر له أن يقوم بدور ذلك الشاب مع أبيه ان عاد ولكنه ـ لما كان أمامه ـ لم يجرؤ لأنه لايزال صغيرا أو لم يكبر بعد ويستطيع أن يتجرأ مثل ذلك الشاب ، وشعر بالتعاسة اذ تذكر قسوة أبيه الشديدة فى معاملته وهو طفل ٠

ثم ماذا يفيد الآن أن يقول لأبيه شيئا ؟ لقد تنبه ذلك الأب (فى المسرحية) الى حقيقة موقفه والخطأ الذى يوشك أن يقع فيه ، فعدل عما كان يزمع ٠ أما هذا فقد فعلها وانتهى الأمر ، فماذا يفيد الكلام ؟

الولـــد

« الحاج سالم » رجل فلاح يزرع أرضا يملكها فى قريته وتيسر له معيشة متوسطة خالية من الضنك الذى يعانيه كثير من مواطنيه القرويين .

تطلع الحاج الى المدينـة التى يرتادها أحيانا ونسائهـا الفاتنات فتزوج أحداهن واسمها « نعيمة » جرت رجله الى هناك وجعلته يكثر زيارتها .

رضيت نعيمة بالعيش فى القرية حيث « الخيرات » التى تتوافر لزوجهـا من الأرض والمواشى والدواجن ، وقد أغرق أهلها بالهدايا منها .

رزق الزوجان بولد غمرته أمه بالحنان والتدليل منذ ولادته حتى كبر وصار غلاما يافعا . لم يكن سالم يستريح الى طريقة زوجته الحضرية فى تدليل الولد واضفاء الحنان الزائد عليه ، فكلما ذهب الى الحقل ولولت ورفعت صوتها :

ـ اصيب الولد بضربـة الشمس .. انه يا كبدى ليس معتادا على الشمس الحامية مثل الفلاحين !

ـ أليس هو فلاحا ابن فلاح ؟

ترد نعيمـة :

ـ لا يا عينى ـ انه ابن مدارس ؟

وكل ما هناك انه يذهب الى كتاب القرية التى لم تنشأ بها مدارس ، ولكنهـا تقصـد انه سيلتحق بمدرسـة ابتدائية فى المدينـة .

والولد يسمع ذلك فيطرب له ، وهو يستعذب حنان أمه ويستغله .. فيشكو وجع الرأس من ضربة الشمس المزعومة .

يتساءل الحـاج سـالم فى نفسه وأحيانا يرفع صـوته بالسؤال :

ـ هل هو من طينة أخرى غير الطين الذى صنعنا منه ؟ وتقول هى :

ـ الولد حضرى ليس كأبناء الفلاحين .

ـ لكن أنـا أريده كأبناء الفلاحين خشنا يتحمل الشمس وغير الشمس .

ثم التفت الحاج الى حالة ولده ، انه هزيل ضعيف لا يقوى

على شيء ويبكي لأى شيء ، وكان يتغاضى عن ذلك لعل الولد يصح مع الأيام ، ولكنه يسير من سيء الى أسوء .

ثم حدث ذات يوم ان زاره « ديكون » صديقه الأعرابى البدوى الذى يستريح اليه ويحبه ، انه يمثل له الأصل الذى انحدر منه : الأصل البدوى بكل صفاته المحبوبة من شجاعة ونخوة وقدرة على المشاق وعلى الحياة الخشنة ، وزوجته الحضرية تكاد تستلبه منها وهو يكره ذلك . على انه يستطيب منها ما نقلته اليه من العادات الحضرية من حيث التألق فى الملبس والتفنن فى المأكل والمشرب ، حتى جعلته متميزا عن أقرانه فى القرى وصارت له صفة خاصة من حيث مقابلة الحكام : مأمور المركز أو ضابط الشرطة أو مهندس الرى وقد يدعوهم الى مائدته التى تعدها وتجهز لها زوجته الحضرية .

ولكن الولد .. يريده خشنا قويا ، وطريقتها تسير عكس ذلك فهى تفرط فى « تنعيمه » حتى كأنها سميت « نعيمة » لذلك .

حدث عندما ما زاره « ديكون » أن لاحظ البدوى هزال الولد واصفرار لونه فقال وهو يقطع الدجاجة القابعة أمامه على المائدة ويوشك على التهامها :

ـ ولدك هذا ... ألا يأكل ؟

فنادى الحاج سالم ولده :

ـ تعال كل معنا .

رد الولد بصوت خفيض .

ـ ليس لى نفس .

قال الحاج لضيفه بصوت آسيف :

ـ هو هكذا دائما مصدود النفس .

لم يقل له ان أمه هى السبب لأنها دائما تلح عليه أن يأكل حتى وهو شبعان وتسبغ عليه حنانها كلما تمنع ، فيمعن فى تمنعه يستزيد من الحنان .

ـ ونحن عندما كنا صغارا نخطف الطعـام حتى لتقول الأم للواحد منا :

كفى ، فقد أكلت كثيرا ومع ذلك نغافلها ونسترق الطعام .

هكذا كان الحـاج سالم يقول فى نفســه وهو يؤاكل البدوى الذى أتى على الدجاجة وصيرها عظاما معروقة .

قال « ديكون » وهو يمرر أصابعه المدهنـة على شاربه الكث كأنه يدهنه بما يقويه ويكسبه بريقا :

ـ اسمع يا حاج .. أعطنى ولدك هذا آخذه عندنا فى « العرين » شهرا واحدا يعود بعده اليك وهو يأكل الزلط .

شرد ذهن الحاج سالم وهو يفكر فيما قاله « ديكون »
وسمع الولد ذلك فكاد يطير من الفرح ، ليت أباه يوافق على ذلك ، ذهب الى « العرين » مرات معدودة ، هنـاك نخيل يملكه أبوه فى ذلك المكان المسمى « عرين » وفى جملة النخيل الشجرة « الخضراوى » ذات الرطب اللذيذ الذى ينضج وهو أخضر اللون لا يحمر ولا يصفر ومع ذلك ما أحلاه .

كان يحلو له هناك أن ينادى أحدا بصـوت عال فيرجع اليه الصدى وهو ذو رنين مطرب . ومن وراء النخيل كثبان الرمل فى شبه صحراء ممتدة الارجاء ، كم يأخـذ بلبه منظر الرمال التى لا نهاية لها وكم يطيب له أن تغوص فيهـا قدمـاه الحافيتان !

لم ينقل الولد الى أمه ذلك الحديث الذى دار بين أبيه وديكون على عادته فى ان يحكى لها ما جرى فى مجلس الرجال ، لم ينقل اليها فى هـذه المرة ذلك الحديث خشية أن تعارض فى ذهابه مع ديكون الى العرين .

استطاع الحاج سالم أن ينفذ ما اعتزمه من ارسال الولد الى مضارب البدو برغم معارضة زوجته حين علمت بذلك ، اذ طلب اليها أن تعد ثيابه لهذه الرحلة فى حسم لا يقبل المناقشة.. الولد لا يطيق الشمس .. الولد يجوع عند البدو .. الولد

يمرض هناك ... الخ . لم يأبه بذلك كله ، بل قال فى ذلك الحسم :

ـ لن يمرض هناك ولن يجوع ، يجب أن يطيق الشمس بل يجب أن « تحمصه الشمس » .

ونعيمة تتدلل على زوجها ، وكثيرا ما تنفذ ما تريد بطريقة ما ولكنها تعرف تماما ساعة ما يكون زوجها جادا صارما ، عندئذ لا مناص من الرضوخ .

أردف « ديكون » الولد على فرسه البيضاء ، وتحققت أمنية الولد فى أن يركب هـذه الفرس ، وليته يرى المهر الذى تلده ويرى قفزه . وحينما يكبر المهر يكون هو قد كبر ويستطيع أن يمتطيه وحده ، لم تخل هذه الأمنية الحالمـة من بندقيـة تعلق بالكتف .. فتتم له بذلك عدة الفارس ، يستطيع عندئذ أن يسابق الفرسـان فى الأعراس التى تقام بالقرية عند زواج أحد شبابها ويطلق النار عندما ينتهى الشوط .

ليس يدرى لمـاذا لا يقتنى أبوه فرسـا ، عنـدهم بقرة وجاموسة وثلاثة حمير ، ليت هذه المواشى تكمل بفرس .

***

كان الولد مع رعيان الغنم بعيدا عن المضارب قريبا من

النزعة التى تنساب مياهها على الرمل فتغسله ، وعندما تنحسر عنه يبدو أملس يغرى الأقدام الصغيرة أن تمشى عليه حافية ، وقد جاء وقت الغداء وأعدت المـائدة فى المخيم ، على حين كان غـلام يقف على التل وينادى بأعلى صـوته ــ يا ولد ... يا ولا .. د .

يعرف رعيان الغنم معنى النداء : حى على الغداء ، فيهرعون الى هنـاك حيث تحلق الرجال حول المـائدة ، وأخذوا يعملون أيديهم فى الثريد واللحم ويندس الصغار بين الكبـار ويأخذون بأيديهم الى الأفواه .

ولكن الولد الحضرى متقاعس فى الطريق كأن أمه تنتظر أوبته المتثاقلة .

وما وصل حتى كانت الجفنة قد فرغت ولم يبق الطاعمون على شىء فيها يؤكل أوحتى يلعق .

لم يأبه به أحد ، ولم يلتفت اليه أحد ، وديكون نفسـه شيخ القوم يتعمد الاغضاء وان كان يرقب فى خفية .

قضى الولد يومه جائعا ، لأول مرة فى حياته يتلفت يمينـا ويسارا لعل أحدا يؤثره بشىء كما كانت تفعل أمه ولكن لا أحد ولاشى ..

وفى الأيام التالية :

ما ان يسمع الصوت المنادى من فوق التل (يا ولد .. يا ولا .. د) حتى يكون فى المقدمة . يعدو مع العادين ، حتى يصل فى الوقت المناسب ويندس بين المتحلقين ، ويضرب بأصابعه بين الضاربين ..

ديكون يرقب ، ويضحك فى نفسه ، سرورا بنجاح الخطة .

ومع مرور الأيام صار الولد مثل بقية القوم . لا يفوته فائت وكأنه لم يكن « ابن نعيمة » .

اشتاقت نعيمة الى ولدها كل الاشتياق ، وألحت على زوجها أن يذهب اليه ويجىء به أو يرسل فى طلبه .

ـ يا ترى يا بنى يا حبيبى كيف أنت ؟

قال الحاج سالم :

ـ انه لابد بخير سيعود اليك رجلا .

ـ أنى لنا أن نعرف ؟

ـ ما عرفنا البادية الا تصنع الرجال .

ـ أريد ولدى كيفما كان .

ـ سيأتى ان شاء الله .

الولد ينزل من على فرس ديكون حيث كان راكبا خلفه ،

ينزل كأنه يقفز ، نشيطا ثابت الخطوة قوى النبر ، يقصـد الى أمه داخل المنزل . تبكى الأم من الفرح وتفتح ذراعيها :

ــ تعال يا ولدى .. الحمد لله الذى أرجعك سالمـا .

ــ تبكين يا أمى ؟ لمـاذا ؟

ــ أبكى فرحا بك يا ولدى .

ــ أنى جائع أكاد أموت من الجوع .

تزغرد الأم . وتقول لها جارة عندها :

خير يا أم محمد .. خير .. العاقبة لك : ان تفرحى بعرسه ان شاء الله .

ليـلة العجـب

قال محمود لزوجته نبيلة بعد أن وضعت سماعة التليفون :

ـ من كنت تكلمين ؟

قالت فى لهجة مستاءة :

ـ سميحـة .

ـ وما لك منفعلة هكذا ؟

ـ « قال ايه » .. تريد أن تشترى فستانا ؟

ـ تشترى ، وأنت لمـاذا غاضبة ؟

ـ ألا تعرف لمـاذا ؟ لأنها تريد أن أنزل معها الى السوق وأعاونها فى اختيار فستان ..

ـ وماذا فى ذلك ؟ فهى دائما تستعين بذوقك فى اختيار اللون وبراعتك فى الشراء .

— ولكن فى هذه المرة تريد أن نؤجل موعدنا الليلة لزيارة منيرة وزوجها بعد أن خرجا من المستشفى وقد ارتبطت مع منيرة على ذلك .

— حقا ، هذه الزيارة مهمة ، يجب أن نطمئن عليهما بعد حادث السيارة الذى وقع لهما .

قالت نبيلة وقد تمكن الغضب منها :

— هل تريد (حضرتها) أن ألغى مواعيدى من أجل سواد عينيها .. ؟ لا لست تحت أمرها .. يجب أن تفهم ذلك ، لن أمكنها من أن تتعود على ذلك .

— ستغضب منك .

— فلتغضب ..

— ولكنها على كل حال صديقتك ثم هى تعتمد عليك .

— حتى زوجها يضيق بتسكعها فى المحال التجارية ويتهرب منها .. فلا تجد الا أياى توافقها على هواها ..

قال محمود وكأنما يبغى تغيير الموضوع الذى أثار انفعال زوجته :

— الا قولى لى يا نبيلة هل سميحة متخرجة من الجامعة ؟

— نعم ، ولم هذا السؤال ؟

ـ أتذكرين يوم ان كنا عندهم فى ذلك اليوم ـ وأظنه كان يوم جمعة ـ فأردت أن اتمدد بعد الغداء وأتصفح بعض الكتب أو المجلات ، لم أجد عندهم أى كتاب ولا مجلة ولا جريدة اليوم التى قرأتها أنـا فى الصباح ، تصـورى انها مدرسـة دين وليس فى منزلها مصحف .

ـ انها لا تعرف فى الدين أكثر مما تتداوله العاميات .. أنـا مدرسة علوم وأعرف فى الدين أكثر منها ..

ـ وكيف حصلت اذن هى على « الليسانس » ؟

ـ قالت نبيلة وهى تحس فى أعماقها بأنها مثل صاحبتها سميحة فى ذلك ، ومما يضايقها من زوجها محمود انغماسـة أحيانا فى قراءة كتاب ـ قالت :

ـ أوه .. يا ما ليسانسات .

ـ شىء مؤسف أن تصبح الشهادات العلمية بمثابة بطاقات تموين فقط .

قالت نبيلة وكأنها تدافع عن نفسها :

ـ ألم يتعلم الخريجون والخريجـات فى كلياتهم ما فيه الكفايـة ؟

ـ كلا ، فالمفروض أن يواصلوا اطلاعهم والا فكأنهم لم

يتعلموا ، حتى ما درسوه وامتحنوا فيه ينسونه •• والنتيجة ان الجامعات أصبحت « معامل تفريغ للقوى العاملة » أو « الضعف غير العامل » المتمثل فى الموظفين والموظفات • والمصيبة أن المعلمين والمعلمات أقل الناس علما واطلاعا •

ــ هل هناك وقت للقراءة والاطلاع ؟

ــ أؤكد لك أن من يريد أن يقرأ لا يعوقه شىء •

كان فكر نبيلة مشغولا بسميحة والخروج معها الى السوق • ساد صمت قطعته بقولها :

ــ لابد أنها الآن تغلى ، هل أنا تحت يدها فبمجرد أن تشير الى أجرى اليها ؟

***

كانت سميحة فعلا تغلى من الغيظ ••

ــ لا تريد أن تذهب معى ؟ لا ذهبت •• فلأذهب أنا واشترى ما أريد وماذا لو أجلت زيارة منيرة الى الغد ؟ طيب يا نبيلة ••

كانت كأنها تحدث نفسها ، وزوجها يسمع ساكتا •• واستمرت تقول :

ـ هى تظن نفسها ماذا ؟ أنـا أحسن منها وألبس أحسن منهـا ..

قال حمدى زوجها :

ـ ولكن لا تنسى يا حبيبتى انها كانت تنتقى لك الملابس .

ـ تنتقى لى ؟ ماذا تعنى ؟ أتقصـد أنى لا أعرف كيف اشترى لنفسى ؟

ـ لا يا حبيبتى لا أقصد ذلك . أردت أن أقول أنها كانت ترافقك وتعاونك .

ـ سترى كيف انتقى لنفسى قم بنا نذهب بسيارتنا .

كان الزوجان قد عملا بضع سنين فى احدى البلاد العربية البترولية وجلبا فيما جلبا معهما سيارة تعلم عليها الزوج القيادة هناك ، أما هى فلم تستطع ، لأن قيادة النساء للسيارات ممنوعة هنـاك ، أو هى ممنوعة بحكم الأوضـاع الاجتماعيـة ، فهى لا تخرج الا محتجبة تلبس العباءة السابغة وليس من المـألوف أن تسير المرأة وحدها لهذا كان يستريح حمدى الى مرافقـة احدى الزميلات لزوجته ، اذ تدلفان الى المحال التجارية ، وهو ينتظر فى السيارة أو يقصـد الى قهوة مختفية فى « زقـاق » ويطلب « تعميرة » وكوبا من الشاى ، يقضى الوقت فى التدخين ورشف الشاى . والقهوات هنـاك فى أماكن جانبية لا يحتـل

روادها الأرصفة والنواصى كما فى القاهرة مثلا ، يتطلعون الى الغاديات والرائحات ..

وفى القاهرة ، حيث نحن الآن وقعت الواقعة بين نبيلة وسميحة ، وحيث لا بأس على النساء فى تجوالهن منفردات ، جعلت سميحة تتنقل بين المحال التجارية مقارنة بين الأسعار والأنواع ، وهى تشعر انها تتحدى .. تتحدى من ؟

هى تتحدى والسلام ...

على حين جلس حمدى ينتظرها فى السيارة ، وقد ندم على انه لم يحضر رواية يتسلى بقراءتها ، وهو يزمع ذلك ، وينسى ، ويندم دائما .

كما ينسى أن يسأل الأستاذ محمود عن الروايات وأيها يصلح ؟ فقد حاول ـ أى حمدى ـ مرة أن يقرأ رواية فوجدها ثقيلا عليه .. لم يكمل تعليمه اذ اقتصر على اتمام المرحلة الثانوية ، وان كان لا يختلف كثيرا عن زوجته سميحة فى المستوى التعليمى ، ولكنه يختلف عنها فى خبرته الحياتية العميقة الشاملة . وكان أهلها يعارضون فى زواجه بها لأنه لا يحمل مثلها شهادة عالية ، ولكنها تزوجته بارادتها لأنها تحبه .

***

محمود فى منتهى العجب والاندهاش .. ترامى الى سمعه وهو فى حجرته فرقعة قبلات .. وأصوات نسائية تبين منها :

« أهلا يا سميحة ، أهلا يا حبيبتى ، وحشانى موت » .

ثم مد بصره الى الصالة فرأى سميحة وزوجته نبيلة فى عناق وتفرقع بينهما القبلات .

يا للعجب ولكن لا عجب تحت الشمس !

ثم جلست « الصديقتان » فى حجرة الجلوس ، ووضعت أمام سميحة أطباق الحلوى والفاكهة . وجرت كلمات مثل :

كلى من هذا فهو صنع يدى ، سلمت يداك ، لابد انه لا يعجبك لأنك لم تأكلى منه كثيرا .. الى آخر العبارات النسائية المألوفة والتى تتضمن افتخار صاحبة البيت بما عندها .

سلم محمود ، ثم انتحى جانبا يريد البعد عن ضجة الأولاد : ولديهما الصغيرين وابنة سميحة الصغيرة « العفريتة » .

ورأى أن يفتح التليفزيون لجذب انتباه الأطفال ويحد من ضجتهم ، وكان الوقت موعد برنامج الأطفال وظهر على الشاشة الصغيرة فيلم كرتون ، فجذب انتباه الأطفال فعلا ، واستغرقوا فى مشاهدته .

ومن العجيب عنده أن يرى الصغار يلتفتون أشد الالتفات

الى أفلام الكرتون كما يشاركهم فى هـذا بعض الكبار ، وهو يضيق بها كمـا يضيق بلعبة الكرة التى تذاع بالتليفزيـون فى أحيان كثيرة وان التفت الى تلك الأفلام لا يفهمها كما يفهمها الصغار .. وهذا وجه العجب !

وجاء بعد برنامج الأطفال برنامج للكبار ، هو « أحداث الأسبوع » . فشغل بمشاهدته ، على حين نام بعض الأولاد ، وانشغل من لم ينم منهم بمشاهدة الصور التى تظهر فى خـلال الكلام .

وكان لقاء الأسـبوع بين زعيمين عرفا بعداء كل منهمـا للآخر وتبادلهما الشتائم والاتهامات فى الخطب والتصريحات ؛ وطالمـا صالت الصحف المنتمية لأحدهما الآخر وجالت فى كيل الشتائم والاتهام ، بالخيانة القومية .

ورأى على الشاشة الزعيمين يلتقيان فى مكان ما ، ويتعانقان ويقبل كل منهما الآخر ...

انها ليلة العجب ، ولكن لا عجب تحت الشمس ...

حمار أخنى عليه الدهر

كان الحماران يجران عربة قمامة ، ويسيران فى العاصمة ، أحد الحمارين كبير ، والآخر صغير لايزال جحشا ، يبدو عليهما الهزال والاعياء من الارهاق فى العمل وقلة العلف •

قال الكبير للصغير :

ـ الى متى نظل على هذا الحال ؟

أجاب الجحش الصغير :

ـ هل هناك غير هذا الحال ؟

قال الكبير كأنه يحدث نفسه :

ـ حقا صدق الشاعر الذى وصفنا بالذلة ، اذ قال « الأذلان : عير الحى والوتد » وكأنه يشرح للجحش : يقصد بعير الحى الحمار ، كان العرب يسمون الحمار « عيرا » بفتح العين والجمال « عيرا » بكسرها •

ــ ماذا تقول ؟

ــ اسكت يا جحش ، فأنت لا تعرف شيئا أنت حديث العهد ، نشأت هكذا ومازلت ناشئا ، لا تعرف غير هذا الذى نحن فيه .

ــ وماذا تعرف أنت ؟ قل لى .

ــ ماذا أقول لك وأنت لا تفهم ؟

ــ قل والسلام .. على الأقل تتسلى .

ــ رحمة الله على أيام مضت .

ــ أين كانت تلك الأيام ؟

ــ كانت أولا فى الريف .

ــ اذن فأنت فلاح .

ــ ليتك كنت فلاحا ولم تنشأ فى جر القمامة ، أول ما وعيت لنفسى وجدتنى عند رجل فلاح فى قرية من القرى ، كان يحيطنى برعايته ، يطعمنى أشهى طعام من برسيم وفول وغيرها ، وعندما يسقينى يصفر لى فأقبل على الماء فى نشوة ، مازلت أذكر الحقول التى يمتد فيها النظر الى بعيد ، وخاصة حقل البرسيم الأخضر ، وكنت أرعى فيه وارتع وانهق حينما ألمح أتانا قريبة .. أرسل اليها التحية والشوق .. بصوت

رخيم . رخيم عندى أنا ، ولاشك انه كان عندها كذلك وان أبدت صدا وركلا عندما اقترب منها .. وهكذا الأنثى سواء فى عالم الحمير أو عالم البشر .. دلال !

ـ أكنت تغازلها ؟

ـ تلك أيام مضت ولن تعود .. آه .. ذكرنى بالغزل وبالشعر . لا أدرى لماذا لم يقل فينا ـ نحن الحمير ـ شعراء الناس مثل ما قالوا فى الجمل والفرس ؟ ما أكثر ما قالوا فى وصف الابل والخيل ، ولكن نحن ويا للأسف .. لم نحظ بشىء من ذلك ، على العكس اذا جاء ذكرنا ففى معرض الاستهانة والزراية وتشبيه الاغبياء منهم بنا ، وتشبيه أصواتهم المنكرة بنهيقنا .

ـ وأين نحن من الجمل والفرس ؟ نحن ناشئون فى القمامة وجر عرباتها ..

ـ أنت كذلك ، أما أنا فقد نشأت فى الحقول ، وطالما « برطعت » فيها رأيت العز هناك ، لم يكن شأنى يقل عن جمل ولا حصان ، ولكنها حظوظ .

ـ وما الذى آتى بك الى المدينة ورماك هذه الرمية السوداء .. حيث تجر عربة القمامة وتطعم القليل الجاف من العشب والعلف ؟

ـ اشترانى جزار من المدينة وكان يركبنى فى النزهـات ، لم تكن السـيارات قد كثرت بعد أو قل لم تكن فى متنـاول الجزارين كما هى الآن •• أعد لى ذلك الجزار لجاما وسرجا مثل لجام الحصان وسرجه ، وكان يشبعنى علفا ولا يرهقنى فى شىء ، كانوا يغسلوننى بالليف والصـابون لكى أكون نظيفا جميل الشكل كنت أعدو بصاحبى عدوا ، وهو يتباهى بركوبى •

ـ ألم تكن لك مغامرات وغراميات ؟

ـ أوه •• كثير من الأتن تيمننى •• لا أنسى أتانا كان يركبها صـديق لصاحبى ، كانا يخرجان معا للنزهـة راكبين كلينا • تيمتنى تلك الأتان بثناياها الحسان وخدها الذى يشـبه الشيفران ؟ ما هو الشيفران ؟ شىء لا تعرفه أنت ولا أعرفـه أنـا •• برغم انهم زعموا انه من لغة الحمير وقال بعضهم لبعض: اذا لقيت حمارا فاسأله •• وهيهات أن يفهمونا •

ـ ما علينا •• لنعد الى حديث الأتان التى فتنتك •

ـ لقد أنجبت منى جحشا •• قال صاحبها لصاحبى : حمارك هـذا أصـيل وأريد أن تنجب منه أتانى • فقـال له صاحبى : أى خدمة يا أبو درش •

وكان الرجل اسمه مصطفى ، ومن عادة الناس ـ كمـا

تعلم ـ أو كما لا تعلم ـ ان يكنوا من يكون اسمه مصطفى بأبى درش •

ـ ومن « درش » هذا ؟

ـ هكذا يقولون ، اذا لقيت انسانا فاسأله •

ـ طيب ، وأين الآن ولدك الجحش ؟

ـ أهذا سؤال تسأله ؟ حقا انك حمار •• عفوا يا ولدى•• هكذا يقول الناس بعضهم لبعض فى التوبيخ ، وقد رددت قولهم كما يرددون هم أقوال بعض • وسؤالك لا محل له ، فالحمار منا ينزو على الأتان ، ثم تلد ويذهب ولدها فى زحمة الحياة •

والا فقل لى أنت : أين أبوك ؟

ـ سكت الجحش وهو يحس بثقل العربة بما ملأها به الزبال ، وقد توانى الجحش قليلا ، فلسعه قائد العربة بقطعة من سوط فى يده ، فألصق ذيله بعجزه وسار يجهد نفسه •• ثم رأى قائد العربة يتشاغل باشعال سيجارة ويعطى لزميله واحدة ويشعلها له بولاعة ذهبية ، فقال كأنه يناجى نفسه :

ـ لو كان لى أب معروف يرى ما أنا فيه ••

ولم يكمل ، اذ خطر له خاطر :

ـ أليس من المحتمل أن تكون أنت أبى ؟

ـ هـذا جائز ..

قال الحمار ذلك ، ثم فكر قليلا وقال :

ـ وهب ذلك فماذا أملك لك وأنـا يقع بى مثل ما يقع بك ؟ تجلد يا بنى هـذا قدرنا .

ثم امعن فى التفكير وقال يقطع الصمت الذى ران عليهما وهما يرزخان فى جر العربة الثقيلة :

ـ الناس لهم حق فى احتقارنا ، فنحن اذلاء خاضـعون خانعون .. الجمل مثلا يغتاظ من صاحبه الذى يضربه ويصبر حتى تواتيه الفرصـة فيفتك به والحصان يجمح ويرمى من يركبه على غير ارادته على الأرض ولا يستطيع أحد أن يكبحـه ويملك ذمامه ، ولا يساس قياده الا لمن يتملقه ويمسح على جلده ويداعب طرته أما نحن الحمير فياويلنا .. يا ويل الخانع !

ـ وماذا نفعل يا عم ؟

ـ على الأقل نركل وفى مقدرتنا أن نركل بالخلفيتين ..

ـ وهل أبقوا على مقدرتنا ؟

ـ حقا ما تقول يا بنى .. فقد انقطع نهيقنا .

ـ أنـا لم أزاول النهيق قط •

ـ لأنك ضعيف ناشىء فى القمامة •• لقد كان نهيقنا قديما أيام العز لوفرة العلف وعدم الارهاق فى العمل والرعاية التى نلقاها من أصحابنا • ولزم الحمـار الصمت على مضض وقد لسعه الغلام بقطعة السوط التى فى يده وقال يستحثه :

ـ حـا •• حـا ••

والحمار يستعير مما آل اليه حاله ، وارتعب اذ تذكر حادثا وقع لزميل له كان يجر معه عربة مثل هـذه فأدركه الاعيـاء وبلغ به الى حد أن وقف ولم يستطع المشى والولد القـاسى ينهال عليه ضربا ، حتى سقط على الأرض وهو معلق بالعربة •• والشارع ضيق لا يتسع لمرور عربتين فتوقفت السيارات خلف عربة القمامة ، اذ سدت عليها الطريق ولم يستطع الولد بعد أن يئس من نهوض الحمار الا أن يفك رباطه بالعربة •

وارتفعت أبواق السيارات تستحث ما أمامها لكى تمضى والتف النـاس حول المنظر الفاجع وصاروا يعلقون تعليقـات مختلفة ، فمن قائل :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، لقد مات الحمار •

وآخر ينظر الى الغلام مؤنبا :

ـ أليس فى قلبك رحمة ؟

وثالث يميل على الحمار ويتفحصه ثم يقول :

ـ ما زالت فيه الروح ٠

والغلام واقف محتار ولا يدرى ماذا يفعل وقد سدت عربة القمامة طريق السيارات والعربات والكل يستحثه أو يلومه أو يشفق عليه أو يشتمه ، كل حسب مزاجه وما يتراءى له ٠ ووقفت أنا حزينا أنظر ولا أستطيع شيئا ، وقفت « مستحمرا » كما يقول بنو آدم ولولا الاستحمار لهاجنى الاستعبار ٠٠

والواقع أنى كنت ، وما زلت والحمد لله ، متينا قوى البنيان من أثر العز القديم ولهذا تحملت آلام التعب والارهاق ٠

وظهرت بين المجتمعين امرأة أجنبية أفرنجية وجعلت تنطق بكلام غير مفهوم ولكن كان الواضح من لهجتها وسيماء وجهها وحركات يديها انها متأثرة جدا مشفقة على الحمار محتجة على معاملته بهذا الشكل ٠

وبرز واحد من الواقفين فهم كلامها ، فتحدث معها بلغتها ، ثم التفت الى الغلام الحائر ، وقال له :

ـ السيدة تريد أن تشترى الحمار ٠

وقال الغلام فى حيرة وذهول :

ـ لكن الحمار ملك للمعلم الكبير ٠

ـ تصرف فانه يوشـــك أن يمـوت • الا تعرف رقم تليفون المعلم فتتصل به ؟

واتجه الغلام الى دكان قريب فيه تليفون واتصل بالمعلم وما هى الا دقائق حتى جاءت سيارة « مرسيدس » ونزل منها المعلم الكبير ، وكان بعض ذوى المروءة قد جروا العربة وركنوها فى حارة جانبية فافسحوا الطريق •

كان « المعلم » مورد الخدين سمينا يخب فى ثياب بلدية من غالى القمـاش ، اتجه الى حيث وقفت المرأة الأفرنجيـة ، وتحدث معها بواسطة الرجل الذى كان يترجم بينهما ، ونقدته هى ثمن الحمار ، فوضعه فى جيبه وانطلقت به « المرسيدس » •

وقال الحمار للجحش وهو يحادثه ويحكى له حكاية ذلك الحـادث :

ـ هكذا كتب علينا يا ولدى ، والمكتوب لا مفر منه •

ـ ولكنـك لم تقل لى مـاذا صنعت المرأة الأفرنجيـة بالحمـار ؟

ـ لا أدرى ولكن موقفها يدل على انها تصرفت بما يتفق مع الباعث لها كأن تكون عالجته بواسطة طبيب بيطرى ولابد انها عنيت به على أى حال •

ـ مسكين ذلك الحمار ••

ـ كلنا مساكين ، لأننا خانعون ، والويل للخانع !

ـ والمرأة الأفرنجية يا لها من انسانة ؟

ـ كانت صدفة وما كل حمـار منا يتعذب ، يلقى تلك المصادفة .

ـ ليت الذين يملكوننا مثل تلك المرأة .

ـ لو كانوا كذلك ما كان « المعلم » كما رأيت ..

ـ الدنيا حظوظ .

ـ لا ، الدنيا تؤخذ غلابا ..

المضـــروب

اسمى محمود . كنت موظفا فى مصلحة السكك الحديدية وأحلت على التقاعد لبلوغ السن القانونية (٦٠ سنة) وأسكن فى هذا الحى من القاهرة مع زوجتى وابنتى الطالبة بالجامعة .

لست سعيدا ، أنـــا مسكين .. نحيف قصير القامة ، أتوكأ على عصـــاء أتمنى أن أضرب زوجتى .. ولكنى لا أستطيع .. أخشى بأسها ، قوية البنيان ، سليطة اللسان ، بل هى التى تضربنى ، وقد تعلمت منها البنت . هل سمعت ان ابنة تضرب أباها ـ الزوجة نعم تفعل ، كثير من الزوجات يضربن أزواجهن ، ولكن البنت التى تكون عادة حنونا رقيقة ومؤدبة . وخاصـــة اذا كانت مثل ابنتى طالبة فى الجامعـــة ـ لكن هـــذه البنت تضربنى مثل أمها ، وان كانت الأم شرســـة تضربنى بالنعل ـ ولا مؤاخذة ـ والابنة تكرمنى فلا تضربنى به ، بل تمد يدها على .. واعفنى من التفصيل ، فهو شىء مخجل وفظيع وان كنت

قد تعودته .. انها تستعمل معى أخف حركات (الكارتية) تلك اللعبة التى تعلمتها ، وشجعتها عليها فى أول الأمر ، فجاءت على دماغى ..

ولابد انك تسأل : لماذا تضربانني ؟ انهما تتهمانني بالبخل، وما أنا الا حريص على النقود ، لا أحب أن تضيع فيما لا فائدة فيه أو ما يمكن الاستغناء عنه ، أليس التدبير نصف المعيشة ؟

ـ ولكن ليس معنى التدبير البخل ، ان معناه حسن التصرف .

هكذا يقول لى صديقى مصطفى الذى يجالسنى فى القهوة فأقول له :

ـ أليس حفظ المال والابقاء عليه من حسن التصرف ؟

ان طلبات ابنتى شيء فوق العقل ، فهذا مطلوب لكتب المراجعة ، وهذا لرحلة ، وهذا للشاى والمشروبات الأخرى فى مقصف الكلية ، غير الفساتين وما اليها .. أليست الكتب موجودة فى مكتبة الجامعة ؟ والرحلة ما لزومها ؟ ومقصف الكلية ومشروباته لماذا ؟ انت ابنتى ، لماذا لم تأخذى عنى ؟ فأنا أقعد فى القهوة أفطر وأشرب الشاى بطلب واحد .. اشترى رغيفا بخمسة مليمات وأطلب (واحد شاى) وآكل هذا بهذا .. والصحف أقرؤها مجانا .. فالأستاذ مصطفى يشترى

كل يوم واحدة ، وبعد أن يقرأها يضعها على المنضـدة ، فأقول له وأنـا اتناولها : عن اذنك •• لم تكن لى طاقة على شرائهـا وهى بقرش فما بالك وقد أصبحت بخمسة قروش ؟ ولا أدرى سببا يبرر رفع سعرها فهى كبيرة الحجم تبلغ نحو ست عشرة صفحة وربما أكثر يشغلها كلام كثير لا يقرأ ، فلو أنهم خفضوا عدد الورق لكان ذلك أحسن ففيه اقتصاد جزء من ثمن الورق واستغناء عن بعض المحررين الذين يحررون تلك الصفحـات ويبحثون لهم عن عمل آخر ، وبذلك تنخفض تكاليفها فينخفض سـعرها •

أليس ذلك ، أى عدم شراء الصحيفة وقراءتها بالمجـان ، من حسن التصرف ؟ اذا سمى هـذا بخلا فيا حبذا البخل !

البنت تعلمت لعبة « الكراتيه » فى الجامعة ، وهى تجرب فى ما تتعلمه لكى تحصل منى على ما تطلب من نقود •• مثل أمها التى تجيد لعبة قديمة هى لعبة « الشبشب » وكل ذلك يقع فوق رأسى •• وينتزع النقود من جيبى •

عندما احكى ذلك لجليسى فى القهوة الأستاذ مصطفى الذى صار صديقى ، يستغرب ويقول :

ـ ابنتك تضربك •• وطالبة فى الجامعة ؟

ثم يقول بعد التعجب :

ـ ألم تكن نضربها وهى صغيرة ؟

ـ أنا يا أستاذ لم أضربها قط ، وكيف أفعل فأفقدها شخصيتها •

وقال وهو يخفض صوته كأنه يحدث نفسه :

ـ آثرت اذن أن تفقدك هى شخصيتك •

نظرت اليه وسكت •• كان فى نظرى وسكوتى معنى العتاب ، كيف يقول هذا ؟

***

اليوم خرجت من المنزل ، فشعرت بالارتياح وانتعشت نفسى وأنا أشم هواء الشارع ، كسجين أفرج عنه •• كأنى كنت سجينا فى الشقة ، لا أسمع فيها الا صوت زوجتى كفحيح الأفعى •• على عكس ما كان فى زمن مضى ، كم رققت صوتها وهى تخاطبنى ، ثم هى الآن تغلظه وهى لا تخشانى • لا تجد عندى ما كانت تحبه وهى ترقق لى صوتها ••

جعلت أدب فى الشارع مستعينا بعصاى التى أتوكأ عليها حتى بلغت القهوة ، ليس أمامى فى الحى ما أقضى فيه الوقت غير هذه القهوة برغم « قلة ذوق » العاملين فيها ، رحم الله أياما

كان النادل فيها « خواجة » ينتزع « البقشيش » من الواحد بحسن ذوقه وخدمته وجميل كلامه وان كان مكسرا .. ولكن هؤلاء لهم ميزة ، هى انهم لا يستحقون « بقشيشا » فلا أدفع لهم الا الثمن المقرر على كوب الشاى وكان من قبل بثلاثة قروش فرفعه صاحب القهوة الاستغلالى الى أربعة قروش ثم الى عشرة لا يتكلف أكثر من قرش ، فالحكومة تصرف لهم « حصة » من شاى التموين بثمن زهيد منهم لله !

ها هو ذا صاحبى محمود جالس على الرصيف أمام القهوة انه مثلى دائما هنا وان كنا نشكو من القهوة والعاملين فيها ومن يجلسون بها وهم اخلاط من الناس فيهم عمال وباعة و « سماسرة » بيوت وغير بيوت .. وهؤلاء ينفقون عن سعة مما لا يأتى للموظفين وأمثالهم من محدودى الدخل .

***

سأله الصديق مصطفى عن الحال فقال انه « زفت » .

— لماذا يا سيد محمود ؟

— الواحد لا يعرف من أين تأتيه المصائب من زوجتى وابنتى أو من موظفى المعاشات .

وحكى لم قضيته فى « المعاشات » التى حكاها له قبل ذلك

عشرات المرات وهى تتلخص فى انه يستحق فرقا بين ما يصرف له وبين ما يستحق ، وقد رفع هـذه القضية الى المحكمة يطالب بهذا الفرق فحكمت المحكمة فى صالحه ، ولكن الموظفين يتلكأون فى تنفيذ الحكم ، ويعلل هـذا التلكؤ بأنهم يريدون « شـيئا » وهو لن يعطيهم شيئا ، أليس ذلك حقه ؟ فلابد أن يؤدوه برغم أنوفهم .

قلت لهم : يا عالم .. أنـا كنت موظفا مثلكم ، وأنتم ستكبرون وتتقاعدون مثلى اتقوا الله .

قال ذلك ، ثم ازدرد آخر لقمة من الرغيف مع آخر جرعة من الشاى ومسح فمه بمنديله وطوى المنديل بعناية ووضعه فى جيبـه .

وتناول الصحيفة اليوميـة من على المنضـدة وهو يقول لصاحبه : عن اذنك .

وأخذ يقرأ . وما لبث ان قال :

ـ انظر .. انهم سيزيدون المرتبات ولا ذكر للمعاشات ، كأن صاحب المعـاش لا يشترى الأشـياء غالية كما يشتريهـا الآخرون ، ما ينوبنا الا الغلاء الذى سيترتب على رفع المرتبات .

قال ذلك وهو يحمد الله فى سره على أنه لا يشترى الأشياء

الغالية الا اذا اضطر لذلك اضطرارا ، فغلاء الفاكهة مثلا يوفر عليه ثمنها .. ويقول فى نفسه :

أنا والحمد لله لا اشتهى ما غلا ثمنه ، ويقولون اننى أحرم نفسى .. وكيف يكون حرمانا ان أمتنع عما لا اشتهيه ؟ ما دمت أملك ثمن الشىء فانى لا اشتهيه وربما اشتهيه ان لم يكن معى ثمنه ..

اللحم مثلا .. هل مات النباتيون ؟ لماذا اذهب الى الجزار واتحمل جشعه وادفع له الثمن الفاحش كما يفعل المغفلون .. فنعينه على بناء عمارة جديدة ؟ لا أكلت لحما ، ولا بنى هو عمارة .. أليس فى البقول ما يغنى عن اللحم ؟ ليت الحكومة تدعم الفول المدمس كما تدعم رغيف الخبز ، اذن لما غلا هو أيضا كبقية الأشياء .

لولا زوجتى وابنتى لكنت من الأغنياء انهما تبذران تبذيرا . هذه البنت المسرفة تطالبنى بثمن مشروباتها فى مقصف الكلية وتقول ان زجاجة المياه الغازية صارت بخمسة عشر قرشا .. ولماذا تشربها وشربة الماء العادية المجانية تغنى عنها؟ بالله ماذا تتكلف هذه الزجاجة حتى تباع بهذا الثمن ؟ ان كثيرا من المنتجين والتجار يثرون ثراء فاحشا على حساب المشترين المغفلين ..

***

لم يعد فى طاقتى احتمال هذه الحياة •• يمكن ان احتمل الضرب ، فقد تعودت عليه •• أما الذى لا يمكن احتماله فهو المطالبة بالنقود وتبذيرها فيما يساوى وما لا يساوى •• هل أنـا قاعد على بنـك •• حتى ألبى كل هـذه الطلبـات التى لا تنتهى ؟ أمس بات عندنا ضيوف من قريتها : قرية زوجتى ، وهم يستأجرون أرضا زراعية لها هناك ويربون بعض المـاشية لحسابها • فى الصباح المبكر غادرت المنزل قبل أن يستيقظوا ويستعدوا للافطار ، خرجت مبكرا قبل أن تقول لى زوجتى : انزل هات لنا كذا وكذا ، فلتتصرف هى ولتدفع من مالها الذى يحملونه اليها • كفـانى « البراغيث » التى حملوها معهم فى ثيابهم وأمتعتهم والتى لم تدعنى أنام الليل ••

ألا يمكن أن أعيش بنقودى موفورة بعيدا عنها ؟ اننى شخصيا لا أتكلف شيئا يذكر ، وعما قليل آخذ المبلغ المتجمد لى كما وعدنى الموظف المختص بالمعاشات ، وقد تمتد يدها الى جيبى فتأخذه منى أو تأخذ بعضه وتقول لى :

كفاك هـذا ••

ولكن الى أين أذهب وأين تقيم يا واد يا محمود •• ؟ أظن انى قلت لك ان اسمى محمود •• فندق المشهد الحسينى المجاور لمسجد سيدنا الحسين رخيص ولا بأس به ، وهنـاك

تكون يا واد يا محمود فى رحاب الحسين رضى الله عنه ، وكل شىء رخيص فى حى الحسين بالنسبة للأحياء الأخرى .

لن يصعب على الا فراق ابنتى ، مهما كان الأمر فهى ابنتى، وضربها اياى قد يكون له مسوغ .. من حيث هو وسيلة للحصول على ما تطلب . وانى لأعجب من سخرية الأستاذ مصطفى اذ يقول لى :

ابنتك تضربك ؟ وطالبة فى الجامعة ؟

وأنت لم تضربها حتى لا تفقد شخصيتها وهى التى أفقدتك شخصيتك وماذا فى هذا يا سيد مصطفى ؟

أما الأستاذ مصطفى فانه يفضل ان يصلى الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين وسنلتقى هناك ، ولابد أن أعزمه على الشاى فى احدى القهوات ، وهذا أصعب ما فى الموضوع وقد تزيد الصعوبة حتى تبلغ الكارثة .. ان طلب قهوة كما أراه يفعل أحيانا .. ففنجان القهوة ثمنه مضاعف لغلاء البن الذى يقال انه عالمى ، وما لنا نحن وهذا العالمى ؟ وعلى أى حال لن يكن ذلك الا أول مرة فقط ، وبعدها يدفع هو ان شايا أو قهوة أو غير ذلك .. هو حر .

***

بينما كان الأستاذ مصطفى جالسا على رصيف القهوة كالمعتاد اذ أقبلت عليه فتاة تقول :

ـ صباح الخير يا عمى مصطفى ..

ونظر اليها مدهوشا .. من تكون ؟

وتابعت هى قائلة :

ـ ألم تر والدى ؟ والدى محمود صاحبك كان يكلمنا عنك .

ـ آه .. انت ابنته . أليس كذلك ؟

ـ بلى ، انه لم يعد الى البيت منذ ثلاثة أيام ، ولم يترك أى خبر ..

كانت البنية ملهوفة على والدها ، حزينة لاختفائه ، نظر اليها مصطفى فرأى ملامح صاحبه محمود تبدو عليها ، ولحظ اللهفة فى صوتها وعينيها ، فرق قلبه وقال لها :

ـ اطمئنى ، أعرف مكانه .

ـ حقا يا عمى ؟ أين ؟

ـ هل يمكنك أن تمرى بى غدا فى مثل هذا الوقت ؟

ـ نعم .

ـ سأكون فى انتظارك لنذهب اليه .

***

قضى محمود ثلاثة أيام فى فندق المشهد الحسينى مؤرقا حزينا ، لم يجد الراحة التى توهمها ، فكر فى أمره وأمر ابنتـه وأسرته التى غادرها ليعيش بعيدا عنها فى راحة كما زعم لنفسه ، وتبين الوهم الكبير الذى دفعه الى هذه الفعلة وندم على ما فعل مع ابنته مخطوبة على نية أن يعقد قرانها عقب التخرج ، وهى الآن فى السنة النهائية بالكلية . وكان مما حمله على هجر الأسرة رغبتـه أن يكون بمنجى من الانفـاق على تجهيزها وما يلزم لعروسها .. ولكنه الآن يتمنى أن يكون فى المعمعة أبا العروس وماذا سيصنع بهذه النقود ان عاش وان مات فما مصيرها ؟

لو مات الآن لم يدر به أحد من أهله ، أين يذهب ماله ؟ نقوده فى البنك والمتجمد له فى المعاشات ؟ كيف تهتدى ابنته الى هذا المـال ؟ أليست أولى به ؟ أليست فى حاجة اليه ، لو مات الآن لمـات كأى كلب .. أى كلب ..

اذا كان عجيبا أن تضرب بنت أباها فان الأعجب أن يهرب الأب من ابنته ومما يلزم لها ..

كان يتوهم انه سيعيش على الافطار بالرغيف والشاى ، والغداء برغيف آخر ولا عشاء كما اعتاد .. ولكنه الآن يشتهى طبقا من الخضار واللحم ولا يستطيع أن يجازف بالدخول الى مطعم ويتناول فيه ما يشتهى .. كيف يهون عليه أن يخرج مبلغا لا يعلم قدره الا الله .. يدفعه ثمنا لذلك ؟

غفا فهاجمه الكابوس الذى يعاوده ولا يدعه يهنأ بنوم ، فيستيقظ فزعا ويجلس حتى لا يعود الى النوم فيعود اليه الكابوس : ماتت ابنته وهو يمشى فى جنازتها حافيا لا يدرى أين ذهب الحذاء .. يصحو ويمسح دموعه .. اذا مات الآن فسيموت كأى كلب .. أى كلب ..

ماذا يفعل ؟ يعود الى البيت برجليه .. فيعلن بهذا فشل خطته ؟ ولكن أية خطة هـذه ؟ ولم أختطها ؟ أالينجو من الضرب أو من الدفع ؟

لمح ابنته وصديقه مصطفى قادمين عليه فبكى .. وأسرع بتجفيف دموعه ومحاولة التجلد .. ولكن ابنته تلقى بنفسها عليه ، وبتلقائية يأخذها بين أحضانه وهى تنشج قائلة :

ــ يا حبيبى يا بابا :

ــ يا حبيبتى يا ابنتى .

ــ تعال يا أبى ، عد الينا لن نمد اليك يدا ..

ــ لا ، بل مدى يا ابنتى ، ولك ما تطلبين ..

دهشت الابنة .. ورأت أباها يكفكف دمعه ففتحت حقيبة يدها وأخرجت منها منديلا صغيرا جففت به ما على خديها من دمـوع .

أصدقاء زمان

اتفق جماعة من الشباب على أن يلتقوا كل يوم فى دار شارعة مشرفة على طريق واسع من طرق بغداد المعمورة بالناس • اكتروها ليجتمعوا فيها ويقضوا أوقاتهم فى اللهو والطرب أو التسلى بمنظر الناس الغادين والرائحين والغاديات والرائحات تربطهم صداقة صادقة قل أن يكون لها مثيل •

يحدثنا أحدهم فيقول :

كنا نفلس أحيانا ونوسر أحيانا •• حسب ما يمكن أن يحصل الواحد منا من أهله أو يكسبه من عمله ، ليس لأحد منا أن يستأثر بشيء دون الآخر • لا ننكر أن تقع مؤونتنا على أحدنا اذا أيسر بالحصول على المال ، واذا حدث لأحدنا املاق وسوء حال قام بأمره أصحابه زمنا يطول أو يقصر لا ننكر شيئا من ذلك •

اذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه وأشهاه ، ودعونا الملهين

والملهيات والمطربين والمطربات ، واذا عدمنا الطرب جلسنا فى أسفل الدار بمكان يشرف على الطريق نمتع الطرف بمنظر الناس فى عدوهم ورواحهم •

وانـا لكذلك يوما اذا بفتى يستأذن علينا • فأذنا له وقلنا تفضل على الرحب والسعة ، اذا رجل نظيف حلو الوجه ، وجيه الشكل ، يدل مظهره على أنه من أبناء النعم وذوى الفضل •

أقبل علينا وقال بعد أن سلم وجلس :

ـ أنى سمعت عنكم وعن حسن صحبتكم وصحة ألفتكم • حتى كأنكم أدرجتم فى قالب واحد فأحببت أن أكون واحدا منكم ان قبلتم ذلك •

ـ أهلا بك واحدا منا ان شاء الله •

وصادف ذلك ان كنا فى حالة تقتير وافلاس • عرفنـا انه قال لغلامه :

ـ أول ما يأذنون لى أن أكون كأحدهم هات ما عندك •

لمـا رأى الغلام حسن استقبالنا له وترحيبنا به غاب عنا قليلا ، ثم أتانا بسلة خيزران فيها طعام المطبخ من لحم ودجـاج وخضر وفاكهـة ورقاق ، وطبخ لنا ما يطبخ وأعد المـائدة ، فأكلنا وشربنا هنيئا مريئا •

انبسط الرجل على سجيته دون كلفة أو تحفظ فـاذا هو أحلى خلق الله اذا حدث وأحسنهم استماعا اذا حدث وأمسكهم عن جدل اذا خولف .

ثم أفضينا منه الى أكرم مخالطة وأجمل عشرة . وربما امتحناه بأن ندعوه الى شيء نعلم انه يكرهه ، فيظهر لنا انه لا يحب غيره ، ونرى ذلك فى اشراق وجهـه فكنـا نسعد به ونستغنى بصحبته وحديثه عن حسن الغناء .واذا غاب تتدارس أخباره ونثنى على آدابه .

وشغلنا بذلك عن تعرف اسمه ونسبه ، ولم نعرف منه الا الكنية اذ سألناه عنها فقال : أبو الفضل .

وذات يوم ــ بعد اتصال الحديث والأنس ــ قال :

ــ ألم أخبركم كيف عرفتكم ؟

ــ انـا لنحب ذلك .

ــ أحببت جارية فى جواركم وأخذت على مجامع قلبى فكنت احتال لرؤيتها فأجلس لها فى الطريق ألتمس اجتيازها فأراها من بعيد أو قريب ، حتى انفت من الجلوس على الطريق ، وجعلت أبحث عن مكان لائق أجلس فيه وأرقبهـا منه فرأيت داركم هذه ، فسألت عنكم ، فقال لى من سألته :

ــ انهم فتية متحابون يساعد بعضهم بعضـا .. فكان

الدخول فيما أنتم فيه من الود والصحبة والأنس أسر عندى من الجـارية •

ــ أين تقيم الجارية ؟ وما صفتها ؟

هى فى المنزل المقابل لداركم هــذه ، وهى فاتنة الوجه ، آسرة اللحظ رشيقة القد ، تتحرك كالغصن اللدن •• لا طويلة ولا قصيرة •• تخرج الى الســوق وقد غطت رأسها وجيدها بخمار أسود •• وأحيانا تصحب سـيدتها فتذرى بها وتجتذب الأنظار دونها ••

ــ نحن نتحايل حتى نجعلك تظفر بها •

ــ يا اخوانى •• انى والله ــ على ما ترون منى من شدة الشغف والكلف بها ــ ما قدرت فيها حراما قط ــ ولا تقديرى الا مطاولتها ومصايرتها الى أن يمن الله على بثروة فأشتريها ••

***

أقام معنا شهرين ونحن على غاية الاغتباط بقربه ، والسرور بصحبته ، الى أن غاب عنا فنالنا بفراقــه ألم ممضى وشــعرنا بلوعة مؤلمــة لغيابه • ولم نعرف له منزلا نلتمسه فيه ، فتكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به • وقبح عندنا ما كان حسنا بقربه ، وجعلنا لا نرى سرورا ولا غما الا ذكرناه •• فى حـال

السرور نقول : هـــذا الذى كنا فيه معـــه ، وفى حـــال الغم نقول :

ليته كان معنا فيذهب عنا الغم •

كنا فى ذلك كما قال الشاعر :

يذكر فيهم كل خير رأيته •• وشر ، فما أنفك منهم على ذكــر •

كنا نرى الفتاة التى هــام بها ماشــية فى الطريق فنغض الطرف كأنها من حرماته •• ونأسف على أنه ليس حاضرا فيسعد برؤيتها ونسعد نحن برؤية الاشراق فى وجهه •

***

مضى على غيابه زهـــاء عشرين يوما •• ثم رأينـــاه •• كنا نجتاز حى الرصافة فاذا نحن نرى موكبا يزحم الطريق ، وتأملنـــا فاذا هو صاحب الموكب • يركب فرســـا فى زى جليل وحوله الغلمان فى خدمته •• فلما بصر بنا نزل عن فرســـه ، وتوقف غلمانه ودنا منا وسلم علينا وقال :

ـــ يا اخـــوانى والله ما هنـــا لى عيش بعدكم ولا نسيت أيامكم ولياليكم ، لا أكتم عنكم خبرى وما حدث لى ، ميلوا بنا الى المنزل كى نتحدث هنـــاك •

ولمـا استقر مجلسنا قال :

ـ أتنم لم تعرفوا اسمى حتى الآن ، أليس كذلك ؟

ـ حقا لم نعرف الا انك أبو الفضل ـ شغلنا لطف شمائلك عن معرفة اسـمك .

ـ أعرفكم بنفسى الآن ، أنـا العباس بن الأحنف .

ـ العباس بن الأحنف الشاعر ؟

ـ نعم أنـا .. كان من خبرى بعدكم انى خرجت الى منزلى من عندكم فاذا صاحب الشرطة يأخذ على طريقى .

ـ لمـاذا ؟

ـ لا أدرى سترك هنـاك .

مضى بى الى دار أمـير المؤمنـين فصرت الى الوزير يحيى بن خالد فبادرنى قائلا :

ـ ويحك يا عباس !

جفلت وصمت فتابع قوله .

ـ انما اخترتك من ظرفاء الشعراء لفطنتك وحسن تناولك للأمور فى شعرك .

الذى اخترتك من أجله أنت أقدر عليه من غيرك أنت أدرى بأحوال الخلفاء ..

ـ ماذا فى الأمر ؟

ـ أنت تعلم أن السيدة زبيدة زوجة أمير المؤمنين لها دالة عليه • جرى بينهما عتاب ونقاش أفضيا الى قطيعة بينهما ، هى بعزة المحبوب ودله تأبى أن تعتذر وهو بجلال الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك •

وقد حاولت الاصلاح بينهما فأعيانى ذلك • وقد شغل هذا الأمر أمير المؤمنين عن النظر فى شئون الناس ومنع الدخول عليه •• ولزم مجلسه عابسا مكتئبا ••

ـ وماذا على ازاء ذلك ؟

قل شعرا يسهل عليهما اللقاء ويذهب ما اعتراهما من جفاء•

ثم أعطانى قرطاسا لأكتب عليه وهيأ لى مجلسا فيه دواة وقلم ، وقال :

ـ هيا ارجو لك التوفيق •

أقول لكم بصراحة •• أول الأمر اعترتنى رهبة سدت على مسالك القول ، وتوالت الرسل تستحثنى •

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم جاءتنى أربعة أبيات رضيتها •• وقعت صحيحة المبنى والمعنى ، سهولة الألفاظ ، ملائمة لما طلب منى الوزير ، فقلت لأحد الرسل :

ـ ابلغ الوزير انى قلت أربعة أبيات ، فان كانت مقنعة وجهت بهـا .

فرجع الى الرسول بأن هاتها فأقل منها يكفى وفى أثنـاء ذهاب الرسـول ورجوعه قلت بيتين على روى آخر غير روى الأبيات الأربعة ، فكتبت هـذين البيتين بعد الأبيات الأولى فى الرقعـة .

ـ هيه .. ماذا قلت ؟

ـ قـلت :

العاشـقان كلاهما متغضب وكلاهمـا متوجـد متعتب

صدت مغاضبة وصد مغاضبا وكلاهما مما يعـالج متعب

راجع احبتك الذين هجرتهم ان المتيم قلمـا يتجنب

ان التجنب ان تطاول منكما دب السلو له وعز المطلب

والبيتان الآخران هما :

لابد للعاشق من وقفـة تكون بين الهجر والصرم

حتى اذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم

ثم وجهت بالكتـاب الى يحيى بن خالد ، فدفعـه الى الرشيد فقال الرشيد :

والله ما رأيت شعرا أشبه بما نحن فيه من هــذا والله لكأنى قصــدت به .

فقال له يحيى :

ــ وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به .

ــ ومن قائــله ؟

ــ العباس بن الأحنف قاله فى هذه الحال .

فلما قرأ الرشيد البيتين ووصل الى الشطر الأخير :

« راجع من يهوى على رغم »

استغرق ضاحكا ، حتى سمعت ضحكة ثم قال :

ــ أى والله اراجع على رغم ..

ثم نهض صائحا .

ــ يا غلام هات نعلى

وأذهــله السرور عن أن يأمر لى بشىء فدعــانى يحيى وقال لى :

ــ ان شعرك قد وقع بغاية الموافقة . وأذهل السرور أمير المؤمنين عن ان يأمر لك بجائزة .. ثم جاء غلام ، فساره بكلام لم اسمعه ، ونهض الوزير وثبت مكانه فنهضت لنهوضــه .. ثم قال لى :

ـ يا عباس ، أمسيت أكثر الناس حظا ، أتدرى ما أفضى به الى هذا الرسول ؟

ـ لا ، فما سمعت .

ـ ذكر لى أن زبيدة تلقت أمير المؤمنين لما علمت بقدومه اليها ، ثم قالت له يا أمير المؤمنين كيف كان هذا ؟ فناولها الشعر وقال هذا أتى بى اليك ، قالت :

ـ فمن يقوله ؟

ـ العباس بن الأحنف .

ـ بم كوفىء ؟

ـ ما أمرت له بشىء بعد .

ـ اذن والله لا أجلس حتى يكافأ .

قال الوزير : فأمير المؤمنين قائم لقيامها وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين وهما يتناقشان فى صلتك ، فهذا كله من أجلك .

ـ مالى من هذا الا الصلة .

ـ هذا أحسن من شعرك .

وما لبثنا ان جاء البشير بأن أمير المؤمنين أمر لى بمال كثير وأمرت لى زوجته بمال دونه وأمر لى الوزير بمال دون ما أمرت به ..

وحملت على ما ترون فى هذا الموكب .

ذلك هو ما عاقنى عنكم طيلة هذه المدة فهلموا حتى أقاسمكم ذلك المال . فما أستأثر بشىء دونكم .

فقلنا له :

ــ هناك الله وأسعدك ، فكل منا يرجع الى نعمة من أبيه .

ــ لابد والله أن نقتسم المال .

ــ اننا فى غير حاجة الى شىء منه .

ــ فلننفق منه اذن على سعة .

ــ اما هذه فنعم .

وبعد أن قضينا وقتا طيبا نهض وقال :

ــ هيا بنا الى الجارية حتى نشتريها .

فمضينا معه ورأينا الجارية جميلة حلوة ظريفة اللسان تساوى على حلاوة وجهها مائة وخمسين دينارا ، اما فصاحة لسانها والمعانى التى تدل عليها ملامحها فانها لا تقدر بمال .. كان العباس ينظر اليها فى لهفة وهيام ..

لما رأى مولى الجارية ميل العباس اليها وشغفه بها طلب فيها خمسمائة دينار فقلنا له :

ــ ان هذا كثير ، أنك تبالغ فى تقدير الجارية ..

ـ أليست قد أعجبته ؟ فليدفع اذن •

كان العباس صامتا يفكر ، على حين كنا نساوم البائع ونبدى عجبنا من ارتفاع ما قدره ، فقال البائع :

ـ من أجل خاطركم واكراما للجيرة احط مائة ••

ـ يا رجل اذا كنت تعرف اننا جيران فكيف تعاملنا هذه المعاملة ؟

ـ آخر كلام احط مائة أخرى ، ولا انقص من الثلاثمائة درهما واحدا •

نظرنا الى العباس ونحن نظن انه استكثر الثمن ولكنه قال :

ـ انى والله احتشم أن أقول بعد ما قلتم •• ولكنها حاجة فى نفسى بها يتم سرورى فان ساعدتم فعلت •

قل ما عندك وعبر عما فى نفسك •

ما كان أكثر من عجبنا وهو يقول :

ـ هذه الجارية أنا أعاينها منذ دهر • وأريد ايثار نفسى بها ، فاكره ان تنظر الى عملى انى ماكثت فى ثمنها ولم أقدرها حق قدرها •• دعونى اعطه خمسمائة دينار كما طلب •

ـ انه قد حط مائتين •

ـ وان فعل واعلموا انى سأعتقها وأتزوجها حرة •

فصادف ذلك من مولى الجارية رجلا من ذوى المروءة • فأخذ ثلاثمائة وجهزها بالمائتين ، وزادت زوجته على ذلك فوهبتها بعض الجواهر •

المفاجـــأة

لمحها من الشباك .. فتذكر أياما فيها الشباك يلعب الدور الأول فى خفقات القلوب ، يشير الفتى للفتاة ، فتستجيب وتبتسم ان أعجبها الفتى ، تكون نظرة فابتسامة فموعد فلقاء ، كمـا قال أمير الشعراء شوقى ، أو تعرض وتغلق الشباك فى وجهـه ويكون ذلك اما أعراضا حقيقيا أو دلالا .

كان الشباك فى ذلك الزمن له شأن أى شأن ، اذ تلوح منه الوجوه الحسان ، كان مثل القمر الذى ينشر أشعته المبهجة ، ولا يهم ما وراء هـذه الأشعة من جبال ورمال وتضاريس يحكى عنها رواد القمر ، كذلك الشباك يلوح منه الوجه الجميل ولا يهم ما وراء هـذا الوجه .. قد يكون الأب القـاسى الذى يجر البنت من شعرها ويصفعها ويغلق الشباك ويهددها ان رآه فتح بعد ذلك فسيكون الوبال وشر الأعمال .

كان الشباك كذلك فى زمن مضى ، وكانت الأغنية القديمة تقول :

« يا نينة شفته من الشباك جدع حليوة وأسمر ، وعدى عليه يا نينة » .

كانت بنت الجيران التى تطل من الشباك أول خطوة نحو الحب ، ولم تعد كذلك الآن ، فالبنات والستات فى الطرقات وفى المدارس والكليات « على قفا من يشيل » وتراهن فى كل مكان ولا حاجة الى التحديق فى الشبابيك .

على أى حال شعر صاحبنا بالارتياح عندما لمحها . وهو فى شقته وحيدا ، يشعر بالانقباض وما يشبه الكآبة : ذلك المرض النفسى المقول عنه ، وذلك لطول وحدته ، كاد صوته أن يفقد التعبير بتلوينه حسب الحال ، لقلة التحدث مع أحد ، والعضو ــ كما تعلم ــ يضعف اذا لم يعمل . تنبه لذلك أخيرا ، فشرع يكلم نفسه بصوت عال كتمرين لصوته ، ينشد بيتا من الشعر ، أى بيت يجيء على لسانه ، أو حكمة .. يقول فى نفسه وهو يضحك على نفسه : لو سمعنى أحد وأنا أكلم نفسى لظن بى الظنون وأقربها أنى مجنون .

لا يحب الستائر التى تحجب عنه مناظر الخارج ، وتشعره بأنه حبيس بين الجدران فهو بدون الستائر يتطلع الى هذه المناظر من النافذة أو باب الشرفة ، وهو الآن يجد فائدة من

ذلك ، فلولا تجرد النافذة من الستارة ما رآها .. ما انتعش بمرآها ، وجهها جميل ، ليشر اليها ، ربما تبتسم له ..

فعلا نظرت اليه ، وخيل له انه رأى شبه ابتسامة على شفتيها .. رآها تستعد للخروج ، ليخرج هو أيضا ، فقد يقابلها فى الطريق ، ولكن الجو لا يبدو له ملائما للخروج ، الدنيا برد ، والهواء نشط ، مثل « السم » لأنه يسمم البدن ، أليس يصيبه بنزلات البرد وخاصة الزكام ؟ انه يرى الملابس المنشورة على حبال الغسيل فى الشرفات وعلى الأسطح تهتز بسرعة ، فيخشى لفحة البرد ان خرج ، ولكنها هى ستخرج فليتوكل وينزل ..

سخر من نفسه كيف يغازل مثل الشباب ويحسب حساب الجو ونزلات البرد مثل الشيوخ ؟ ولكن لا وقت للتفكير فى هذه المتناقضات ، فهيا وانتهز الفرصة قبل أن تفلت منك . ولكن ماذا يريد منها ؟ أليست جارة وللجيران حقوق وحرمات ؟ ولكنه يعلل النفس بصحبة بريئة .. فقد تلين له فيذهبان الى الحديقة العامة ويجلسان فى الشمس ، آه .. الشمس ، الشمس لا تدخل هذه الشقة الباردة ، فيستعين فيها بالمدفأة الكهربائية ، هرع الى المدفأة فاطفأها استعدادا للخروج ، الخروج وهل أنت مصر على الخروج ؟ نعم ولم لا ؟

استشعر السخرية من نفسه مرة ثانية : يزمع أن يطارد

المرأة مثل المراهقين ويخاف من الجو البارد ، مثل العجائز ؟

ارتدى ثياب الخروج ، وهبط .. ما أن صار فى الشارع حتى أحس بأن الجو ليس سيئا كما كان يتوقع ويخشى ، النسمات منعشة ، والشمس مشرقة ، لماذا يحرم نفسه من الهواء الطلق ويظل حبيسا بين الجدران ؟

كذلك العمل ، يخيل للمرء انه صعب فاذا أخذ فيه وجده سهلا .

ما ان وصل الى ناحية الشارع حتى تذكر أيام كان يقف ساعات مع أصدقائه وانداده الشبان يعاكسون الغاديات والرائحات ، ويتطلعون الى الشبابيك التى تنظر منها البنات .. لم يعد ذلك كما كان ، فشبان هذه الأيام يرون البنات والنساء فى كل مكان ، وخاصة فى المدارس والكليات المختلطة ، والفتاة تحادث الفتى بشكل عادى ، فلا يقول لها : « يا باشا » كما كانوا يقولون فى الزمن الماضى ولا تقول له : يا سم . ردا على غزله الجرىء ، انتهت « الباشوية » ولم يعد هناك « سم » .

ولكنه لاتزال فى أعماقه تلك النزعات أو النزغات .. أليس يسعى الآن وراء التى لاحت له من الشباك وخل اليه أنها تبتسم له .. ؟

ها هى ذى . يالله . ماذا يرى ؟ بيدها عصا تتوكأ عليها ،

رجلها اليمنى ملوية ، وقدمها اليمنى تسقط على الأرض منحرفة وبدنها يميل جزء منه ، وهى لهذا تمشى بصعوبة ، فهى عرجاء اذن ، وهـذا العرج لا يظهر من النافذة ، وسبحان من ركب هذا الوجه على هذا الجسم .

مسكينـة أنها تسـتدعى العطف لا الغزل ، ولو علمت ما غازلتها حينما رأيتها من النافذة .

ثم أفـا ق الى نفسه ، وتساءل يؤنب نفسه :

هب أنها غير ذلك ، أعنى كما ظننتها أولا فماذا كنت تريد ؟ أيليق هـذا وأنت فى هذه السن ؟ أمازلت مراهقا وغدا ؟ كنت كذلك أيام الصبا .

أتذكر يوم مشيت وراء فتاة توجه اليها ألفاظ الغزل البذىء وهى تمشى صامتة كأنها لا تشعر بك ، وبعد أن حفيت قدماك التفتت اليك وقالت مؤنبة :

أما كفاك ؟ دعنى واذهب لحالك .

شعر نحو العرجاء بشعور آخر يختلط بالاشفاق .. تأملها من بعيد .. يالله أتكون هى أمانى ؟ وما الذى جرى لها ؟ كان طفل يتقافز حولها ، فلما بعد عنها نادت :

ـ يا حمادة .. حمادة .. تعال هنا .

اقترب منها ، لم يملك نفسه ان سألها :

ـ أنت •• أنت أمانى ؟

ـ نعم يا أحمد •

ـ أهلا يا أمانى •

ـ أهلا بك يا أحمد •

ـ عشر سنين لم أرك • أهـذا ولدك ؟

ربت كتف الصغير ، ومسح على رأسه ، وقبله •

قـالت :

ـ نعم ، انه أحمد ولدى •

ـ أحمد ؟ سميته أحمد ؟

ـ ••••••••••

ـ ماذا حدث لك ؟

ـ نصيب •• ليس لنا الا أن نرضى بما قسم الله •

ـ لم انسك قط ، وأنى سعيد بلقائك •

كان نصيبه الحرمان منها ، لأنه لم يكن لديه « شقة » وكانت أزمة المساكن قد استحكمت وكان حصول مثله على شقة مستحيلا ، وطالت مدة خطبتها ، ضغط عليها أهلها عندما تقدم لها آخر عنده شقة ، فتزوجت به مستسلمة لقضاء الله •

توفى والداه فورث عنهما « الشقة » المستأجرة ، بعد فوات الأوان . وها هو ذا يعيش وحيدا ، قسمة ونصيب .

شعر بالحب القديم يستيقظ فى أعماقه .. يأخذ شكلا جديدا يتحول من العنفوان الى الهدوء ومن الرغبة الجامحة فى الامتلاك الى الاستقرار النفسى القانع ، جعل يردد :

حسبى وحسب الذى كلفت به   منى ومنه الحديث والنظر

قال لها :

ـ هل أسعد بجلسة معك فى الحديقة ؟

أشارت برأسها موافقة .

ـ ايه يا أمانى .. هل تذكرين هذه الشجرة التى طالما تفيأنا ظلالها ؟

ـ ومن ذا الذى ينسى أحلى ما كان ؟

ـ انها باقية على العهد ، تحنو علينا كما كانت ، كنت أجىء هنا وحدى فأشعر وأنا أتأملها كأنها تسألنى عنك .

ـ اما تزال شاعرا ؟

ـ ان لم أكن فقد صرت ، من يرى هذا الجمال ولا يشعر به ؟ هذه الأشجار السامقة تهتز فروعها فى رقة ودلال وهذه

تبهرنا بألوانها ، وخرير المـاء ، أتسمعين خرير المـاء فى هـذا الجدول ؟ وتغريد الطيور ؟ ان الطبيعة تحتفل بلقائنا ..

تسكت كأنها خجلى وتبتسم .

يركز بصره على ابتسامتها التى طالمـا فتنته ..

***

لمـا عاد كان يقفز على سلم المنزل بشباب لم يعهده منذ سنين .. ودخل الشقة وهو يدندن :

«شباك حبيبى .. شبك قلبى .. شبك قلبى » .

وصوته يطرد من الشقة أشباح الوحدة ويظهرها من جراثيم الكآبـة .

واتجه ببصره نحو شباكها ، فرآه أحسن الشبابيك ..

بائـع الليمـون

شعر محمد أفندى بالخزى ، بل هو لا يذكر أنه فى حياته شعر بالخزى مثل ما شعر به فى هـذا الموقف .. وكيف كان ذلك ؟ لا تعجل فسيأتيك البيـان الذى لا يتأتى الا بتفصيل الحكاية ، فتذرع بالصبر ، ودعنى احكى لك .

محمد أفندى موظف بالحكومة ، واليوم يوم الجمعة : العطلة الأسبوعية ، وهو ممن يسمونهم ذوى الدخل المحدود ، الذين أصبحوا غير ما كانوا أيام كان يقال (ان فاتك الميرى تمرغ فى ترابه) أصبحوا لاشىء — من الناحية المـالية . ازاء ذوى الدخـل الممدود الى لا نهاية .. كان فيما مضى يأخذ أولاده وأمهم ويتنزهون فى عطـلة الأسـبوع . أما الآن فان أسلم طريقة لمثله أن يستغنى عما يكون الاستغناء عنه فان غول الأسعار يفغرفاه ، ويبتلع مرتبه الشهرى ، ولا يبقى منه شيئا . فهو يكتفى بالجلوس على مقهى ويختار مقهى متواضعا لرخص

الطلبـات فيه ، وان كانت كل المقـاهى قد بسط ذلك الغول سلطانه عليها .

جلس محمد أفندى فى المقهى كعادته فى أيام العطلة والفصل شتاء تجلو الشمس فيه على الرصيف : رصيف المقهى الذى رصت عليه المناضد والكراسى .

وعند الانصراف صفق للنادل كى يعطيه ثمن المشروب ، ولكن هـذا كان مشغولا عنه بكثرة الطلبات ، بل كان بصراحة (مسطولا) وهو هكذا دائما لا يكاد يفيق .. قـال محمد أفندى فى نفسه :

ولمـاذا أتعب نفسى ؟ فلأدعه وأذهب .. وأقتصد ثمن المشروب ، ولن يتنبه الى ذلك فهو مسطول ..

تحرك ماشيا قال له صوت من داخله :

ــ عيب !

ــ ما هو هـذا العيب ؟

ــ هو مشيك هكذا دون أن تدفع الحق لصاحبه .

ــ وماذا فى ذلك ، انه يأخذ سبعة جنيهات فى اليوم وأنـا الموظف المتعلم آخذ خمسين جنيها فى الشـهر ، أى ان دخله أضعاف دخلى ..

ـ لو أن الأمر كذلك لاستحل مالك من هو دونك •

ـ هه سترجع الى سابق عهدك ؟

ـ ان عدتم عدنا •

ـ وأنت سبب الفقر •• ستقول لى ما كررته على دائما :

الفقر مع الشرف خير •• الى آخر حكمك الغالية •

ـ عجبا •• أتسخر منى وفعلك هـذا يجعلك موضـع السخرية بل موضع الاحتقار •

ـ أى عجب فى أن آخذ من هذا المعتوه الجاهل قطرة من بحر يغدق عليه ؟

ـ انك بهذا التصرف تأخذ ما لا حق لك فيه مهما صغر ، ألم تشرب الشاى ؟ فكيف لا تدفع ثمنه ؟

ـ ثمنه ؟ وهل كوب الشاى يساوى عشرة قروش ؟ انه لا يتكلف أكثر من قرشين •

ـ واستمتعت بالجلسـة تحملق فى الرائحين والغـادين والرائحات والغاديات •

ـ والله يا أخى ما استمتعت •

ـ لست أخاك ما دمت تفعل هذا • وماذا تقصـد بانك لم تستمتع ؟

ـ أقصد ان الأمر بعكس ما تظن ، أوجع دماغى زعيق القوم هناك ، وسبابهم الذى يتناول الأمهات بأقبح الألفاظ والذى يتبادلونه كأنه تحيات طيبات ، وأعجب أن الواحد منهم يتلقى بالضحك والمرح قذف أمه بكلمات تخدش الحياء .

ـ أنت محق فى هذا الاستنكار ، ولكن ذلك لا يبرر أن تقع أنت أيضا فى الخطأ .

ـ لقد استرحت منك ومن فلسفتك زمنا .

ـ ألم أكن سببا فى راحة نفسك واطمئنان بالك بعد أن كنت تعانى فى أعماقك من جراء أخذك للرشاوى ؟

ـ أنا لم أكن أمد يدى لشىء من ذلك .

ـ لم تمد يدك ؟ حقا لم تمد يدك بالفعل ، ولكن كان زبائنك يعرفون درج مكتبك الذى يدسون فيه النقود .

ـ وماذا تريد الآن ؟

ـ ان ترجع وتعطى الرجل حقه .

ـ لن ارجع ، وكفانى منك وجع قلب ..

ـ أنت حر .

ـ مشى محمد أفندى فى طريقه الى البيت ، ليس البيت قريبا ، ولكنه يفضل المشى على انتظار الأتوبيس والتعرض

لمتاعب الزحام . وهو لا يفكر فى ركوب تاكسى لأسباب كثيرة ، بعضها مفهوم لضيق ذات اليد ، حتى اذا لم يكن هـذا الضيق فان التاكسى لا يقف والوقوف فى طابور المجتمع الاستهلاكى أسهل من الوقوف فى انتظار التاكسى لأن ذلك مضمون فيه ان يصل الى ما يريد وان طال المطال .. أما هـذا فهو غير مضمون .

وربما فكر فى أن يكون سائقا لتاكسى يعمل عليه وقت الفراغ ، على أن يكون ملكه ولكنها أمنية بعيدة التحقيق فمن أين له ثمن سيارة ولو بالتقسيط .

وربما يمكن أن يكون ذلك بالتقسيط لو لم يكن لديه هؤلاء العيال الذين بلغوا ستة والمصيبة ان أمهم حامل ، كثيرا ما قلت لها أن تذهب الى مكتب تنظيم الأسرة ، ولكنها تكذب على وتقول أنها ذهبت ولم تنفع الاقراص . أذكر أن المهنئات بزواجنا كن يقلن لها : يغلبك بالمال وتغلبينه بالعيال ، كانت المهنئات فقط هن اللائى يقلن ذلك ، أما الرجال فهم يعرفون خطر هذا الرأى ، وانه سلاح للمرأة قد يكون مغلولا وقد يرتد اليها بالوبال وسوء الحال .

ظل محمد أفندى ماشيا حتى اقترب من البيت ، ورأى على ناصية الشارع غلاما يبيع الليمون ، قد افترش الرصيف وجعل ينادى : الواحدة بقرشين .

الولد هزيل ، ولونه أصفر كالليمون .. ولابد أن ذلك يرجع الى سوء التغذية والحرمان ، ومع هذا فان محمد أفندى تحى الشفقة عليه جانبا وساومه حتى أخذ منه ثلاث ليمونات بخمسة قروش .. القروش قليلة فى السوق فالبائع ليس معه قروش يدفع منها الباقى وربما أدعى ذلك كى يظفر بالباقى ، اذ ييأس المشترى ويتركه له ان كان قليلا ، وبعض الباعة يعطى ـبريتا أو أقراصا من الحلوى (بمبونى) .

لولا أن عندهم اليوم سمكا ما اشترى الليمون ، أحضر السمك أمس من المجمع الاستهلاكى وقف فى الصف الطويل ، وظل واقفا حتى انتهى الى منفذ البيع ، قضى نحو ساعة واقفا فى سبيل الحصـــول على السمك ، لأن ثمنه هنا أقل بكثير مما يباع به فى غير المجمعات ، اشترى كيلوين اثنين ، لكى يكون يـــوم الجمعة بحق .. وما هكذا تكون باقى أيام الأسبوع .

أعطى الولد (بائع الليمون) ورقة بخمسة وعشرين قرشا ، على أن يأخذ منه الباقى وقف يتأمل الولد ، انه غلام فى نحو الثانية عشرة من عمره ، يلبس جلبابا متسخا بعض الشىء ، لعله يتيم يساعد أمه واخوته الصغار على العيش .. لعل أباه فقير أو مريض لا يقوى على العمل لاكتساب الرزق ، أعطـــاه الولد ورقة بعشرة قروش فدسها فى جيبه وهو ذاهل وما يزال مشغول الفكر بما صنعه من مخاتلة نادل القهوة وعدم دفع ثمن المشروب

ما أن ابتعد عن بائع الليمون حتى سمع من ينادى وراءه :

ــ يا عم •• يا عم •• يا حاج •

توقف حتى أدركه الغلام •

ــ مــاذا •

ــ كم دفعت لى وكم أخذت ؟

قــال الولد ذلك وهو يلوح فى يده بورقــة ذات عشرة قروش •

قال محمد أفندى وقد تنبه :

ــ آه نسيت •••• أكثر الله خيرك •

ــ خذ يا عم ، هذا حقك •

دهش محمد أفندى وجعل ينظر الى الولد نظرة تحتوى على معان كثيرة ، منها مقارنة موقفه بموقفه •• وشعر بذلك الخزى الذى بدأنا به هذا الحديث •

يرفض الطبلية

- كيف الحال يا حاج فاضل .

- الحال معدن يا أستاذ .

- كله تمام ؟

والله مش كله ..

سكت الحاج فاضل قليلا كأنه يتذكر ثم قال مقهقها : حصلت حكاية فى البلد انما ظريفة .

قلت له مشجعا :

قل يا حاج فاضل ، من زمان لم نسمع حكاياتك الظريفة ، ماذا حصل فى بلدنا ؟

قال الحاج فاضل :

- أنت عارف الحاج حامد الرجل الطيب الذى يتحدث الناس

بفضله ويخص الفقراء باحسانه خطر له أن يعمل وليمة بمناسبة نجاح ولده شاكر الطالب بالأزهر ودعا اليها كثيرا من الناس وكان من جملة المدعوين ثلاثة شبان من الذين يطلقون لحاهم ـ الشيخ شاكر الله يحميه يقول لهم مداعبا :

لحـاكم الله :

أعد الطعام ومدت « الطبالى » فى دار الحـاج حامد ودعى الجميع الى تناول الطعام وكان الحاج حامد قد ذبح عجلا من تتاج جاموسته .

ولا أطيل عليك .. جلس الجميع على « الطبالى » وكان الشيخ شاكر يحيى المدعوين ويخص الشـبان الثلاثة بتحياته .

ـ الشبان الذين لحاهم الله ؟

قهقه الحاج فاضل وتابع كلامه :

أى والله يا أستاذ .. ما أظرف كلامك ! لا أطيل عليـك زمجر شاب منهم وعلا صوته .

ما هذا ؟ كيف نأكل على الطبالى ؟

قال له شاكر :

وماذا فى ذلك يا باشمهندس ؟

أصل الولد متخرج فى مدرسة الصنايع .

صاحب اللحية قال :

ـ النبى صلى لله عليه وسلم لم يكن يأكل على الطبلية .

ـ وهل نهى عن الأكل عليها ؟

أصل الشيخ شاكر ولد يعجبك .

فما كان من صاحب اللحية الا أن صرخ قائلا :

قلت لك انه لم يأكل عليها ، بل كان صلى الله عليه وسلم بضع الطعام أمامه على الأرض هكذا ..

وأشار الى من معه فرفعوا الأكل وأمسك هو بالطبلية وضرب بها الحائط فانكسرت ؟ وزاط الناس ، وقال الشيخ شاكر :

لنفرض أن الأكل على الطبلية حرام ..

نفرض فقط .. هل يتوجب الأمر الذى فعلته ؟ ألم تسمع قول الله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ؟

وقوله تعالى : ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولم حميم .

وجاء الحاج حامد صاحب المنزل وقال للشاب الملتحى :

لماذا يا بنى تكسر الطبلية ؟ كل كما تريد ولا داعى لهذا ؟

قال الحاج حامد ذلك واختفى عن الأنظار .. احضر سكينا واخفاها تحت عباءته وخرج من الدار ثم عاد دون أن يشعر به أحـــد ..

كان هناك خارج الدار « موتوسيكل » للشاب الملتحى جاء راكبا عليـــه ، خرج صاحب الموتوســيكل واتجه اليه ليديره ويركب فوجده على الحديـدة .. العجلتـــان « نائمتان » على الأرض والكاوتش مخروق ، صرخ :

من فعل هــذا ؟

جاءه الحاج وقال له :

ـ أنـــا فعلته .

ـ لمـــاذا ؟

لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يركب موتوسيكلا..

هو وحمالة الحطب

ـ لا ، لا ، يا أستاذ رفاعى .

قال الأستاذ رفاعى يحاول أن يلين قناة الممثل فيأخذ الدور الذى يسنده اليه فى التمثيلية الجديدة :

ـ يا على ، هذا الدور لا يليق الا بك ، وأنت قمت بدور « أبى لهب » فى التمثيلية السابقة خير قيـام ، أنت وزوجتك « حمالة الحطب » .

ـ زوجتى ؟ تقول زوجتى ؟

ـ فى التمثيلية .

ـ أنـا برىء منها الى يوم القيامة .

ـ لمـاذا ؟ انها ممثلة جيدة .

ـ لبتها لم تكن .

ـ ماذا تقصـد ؟

ـ أقصـد أن وزرهـا مثـل وزرى ، وأنـا تبت وهى ما تزال .

ـ تبت ؟ تبت عن ماذا ؟

ـ عن هذه الأدوار ، تبت عن سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن النطق بألفاظ الكفر .

ـ هذا تمثيل .. والتمثيل لابد فيه من صراع بين قوى الخير وقوى الشر .

ـ ذلك كله شر .. شر فى شر ..

ـ كيفِ يكون كذلك وهو يبصر الناس بتاريخ دينهم ؟

ـ أليس هناك وسيلة أخرى غير ذلك ؟

ـ ماذا نفعل ؟ أنـا مخرج وأنت ممثل .

ـ وهى ممثـلة .

ـ من هى ؟

ـ حمالة الحطب .

ـ يبدو أنك جننت .

ـ اننى فى أتم العقل ، ثم قـل لى هـل يعد مجنونا من

لا يريد أن يشتم النبى وأصحــابه ويتجرأ على الدين القويم بالثلب والتجريح ، ويتمسح بالأصنام والأوثان •

ــ على مهلك •• أتريد أن تلقى على خطبة ؟ قلت لك انه تمثيل فقط يا حضرة الممثل ••

***

لم يدخل على فى تلك المناقشة مع المخرج الا بعد أن مر بأزمة فكرية شعوريه شديدة على أثر ما رأى نفســه وسمع صوته على شاشة التليفزيون فى تمثيلية يأبى أن يسميها « دينية » كما يقولون ، بل هو يرى انها لا دينية • كان يمثل دور أبى لهب ، وبطبيعة الدور يأخذ موقفا معاديا للاسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو وامرأته فى التمثيلية « حمالة الحطب » التى تمثلها امرأة مسلمة أو المفروض انها مسلمة •

شعر فى قرارة نفسه أن هذا عمل غير صالح ، ولم يقنع بأن المسألة تمثيل فقط كما يقول المخرج وغيره • كيف يتلفظ بتلك الألفاظ الجارحة التى يقولها أبو لهب ، ضد من ؟ ضــد محمد صلى الله عليه وسلم وهو مطمئن القلب ؟ لا •• لا يمكن أن يكون هــذا عملا سليما •

***

تذكر زوج أخته الشيخ عبد الوهاب . انه عالم من علماء الدين الذين يعرفون الحلال من الحرام ، فلم لا يلجأ اليه يستفتيه ؟

حتى لو أفتى الشيخ بأن ذلك حلال فانه لا يفعله ، لا يأخذ هذه الأدوار المعادية للدين ، ولا حتى يشترك فى هذه التمثيليات، كيف يقف أمام ممثل أو ممثلة يعلم انه مسلم وهى مسلمة ويسب هذا أو تلك الاسلام والمسلمين ؟

كيف ينادى الممثل المسلم بالويل والثبور لمن يتعرض أو يطعن فى آلهة قريش وأصنامها ؟

كيف يقسم باللات والعزى من دون الله الواحد ؟ كيف يفعل ذلك كله مهما كان الأمر وبأية صفة كانت ومهما كانت الفائدة المزعومة ؟

على أية حال لن يضر استفتاء الشيخ عبد الوهاب ، قال له :

ـ أريد محادثتك فى أمر بينى وبينك ؟

ـ انى طوع أمرك .

وانفردا ، وان كانت زوجة الشيخ عبد الوهاب استرابت فى الأمر ، فوقفت تتسمع بحيث لا يريانها ، ولما رأتهما يتحدثان فى أمر لا يعنيها ذهبت وتركتهما .

قال الممثل للشيخ :

ـ أنت ترى ، كما يرى الناس ، وتسمع كما يسمعون ، التمثيليات الدينية على شاشة التليفزيون ومن الاذاعة .

ـ نعم ، نعم .

ووضع الشيخ جبهته على يده ، وصمت يفكر ، ثم قال :

ـ نعم أفعل ، بئس ما أفعل .

تهلل وجـه على ، وصمت احتراما لصمت الشيخ ، ثم قـال :

ـ أوضح لى بالله حكم الشرع فى ذلك .

ـ حكم الشرع ؟ وهل أنتم تسيرون على حكم الشرع ؟

ـ سأفعل ان شاء الله .

ـ اعلم أن الكفر يتم باللسان ، والايمان لا يتم الا باللسان والجنان ، هكذا قال الفقهاء ولاشك فيما قالوا .

ـ وما هو « الجنان » ؟

ـ القـلب .

ـ وما رأيك فيما يقولون من انه « تمثيل » فقط ، وان فائدة الناس من هـذه التمثيليات تسوغ هذا العمل ؟

ــ لا شىء يسوغ المحرم (بعد فترة صمت وجيزة) أما فائدة الناس فيمكن تحقيقها بوسيلة أخرى لا شية فيها .

ــ ويلى مما فعلت ؟

وما رأى الشيخ عبد الوهاب صهره الممثل مهموما محزونا أراد أن يخفف عنه بشىء من الفكاهة فقال :

ــ يحكى ان امام مسجد لاحظ عدم اقبال الناس على درسه الذى يلقيه فى المسجد عقب صلاة العشاء فما تنتهى الصلاة حتى ينصرفوا عنه ويدعوه وحده أو مع نفر قليل فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له أنهم يذهبون الى شاعر الربابة حيث يستمعون اليه ينشد قصص الهلالية ويحكى على أنغام الربابة .

فكر فى الأمر ، وهداه تفكيره الى عمل طريف : احضر « ربابة » وتعلم العزف عليها ، ثم أخذها الى المسجد يخفيها تحت عباءته .. فلما فرغوا من الصلاة بادر الى اظهار الربابة وصاح :

ــ انتظروا يرحمكم الله .

وأخذ ينشد لهم ما يرويه عن أبى زيد الهلالى من انه قال لتابعه أبى القمصان :

ــ امسك الحصان حتى أتوضأ واصلى .

وآتى الامام ـ فى انشاده على الربابة ـ على كيفية الوضوء والصلاة وبيان الفرائض والسنن والمستحبات ... الخ .

فانجذبوا اليه ، ولزموه مبهورين مسرورين .

قال على وقد انفرجت اساريره وضحك :

ـ حكاية ظريفة ، ولكنها لا تنفع الآن .

ـ أردت أن أقول أنه يمكن التصرف فى ايصال المعلومات الى الناس دون أن يكون حرج فى الدين .

قال على كأنه يحتج :

ـ لماذا يسكت علماء الدين عن هذا الحرج ؟

ـ قد يكون سكوتهم راجعا الى الرغبة فى عدم التصادم ، اذ شاع ذلك وانتشر حتى صار مصدر رزق للكثيرين .. على انه لا يخفى عليك أن القوم يؤثرون العافية .

ـ أولا ، قبل أن يشيع وينتشر أى عند بدئه ، أين كانوا ولماذا سكتوا والواجب والضمير يمليان عليهم أن يقولوا كلمة الحق مهما كان أى شىء ؟ ألست معى فى أن تقديم مواد لا دينية على انها دينية .. أمر خطير ؟

ـ أنا معك ولكن الذين يفسح لهم المجال هم الذين يجارون ويدورون مع الزمان .

ـ نعيب زماننا والعيب فينا .

***

مرة أخرى عاد الممثل على الى المخرج الأستاذ رفاعى ،

وقد دعاه هذا الى مقابلته ، وجد هناك الممثلة التى قامت أمامه بدور « حمالة الحطب » زوجة أبى لهب قال المخرج :

ـ ايه يا على .. هل عدت الى عقلك ؟ نريد أن نشرع فى العمل .

ـ عدت الى عقلى ، نعم .. ولهذا لن أقوم بهذا الدور ..

ـ الناس كلهم ، حتى علماء الدين ، موافقون ، لم يعترض أى منهم ، وأنت وحدك المعترض .. أكلهم على ضلال وأنت فقط المهتدى ؟

ـ هذا لا يهم ، انه حكم الشرع يسكتون عنه ، والجمهور لا يعرف ، وقد تأكدت منه .

ـ تأكدت ؟ كيف ؟

ـ قال لى أحد العلماء : الكفر يتم باللسان والايمان انما يتم باللسان والجنان .

ـ أى جنان ؟

نطقها رفاعى بكسر الجيم ساخرا .. فقال له على :

ـ جنان يفنح الجيم من فضلك .

لحظ على أن الممثلة قد بهتت .. كان يحبها من قبل ، ولكن لما رآها أمامه تمثل « حمالة الحطب » ذهب حبها من قلبه .. كل ما يمس رسول الله يلدغه .

تعاظم اثمه فى نفسه وهو يقذف فى حق الرسول .. ولو كان هذا تمثيلا كما يقولون .. نعم ولو ، لا شيء يبرر هذا الاثم العظيم . انه ان لم يكن حراما ـ على فرض ذلك ـ فهو قلة أدب ويستطيع المرء أن يكون قليل الأدب مع أى كائن لو أراد ، أما هنا ـ فى مقام النبوة العظيم ـ فلا .

ظلت الممثلة ساهمة ولم تشارك المخرج الضحك عندما نطق لفظ « الجنان » بكسر الجيم .. انصرف عنهما المخرج لبعض الشئون ، فقالت لعلى بلهجة جادة :

ـ تقول ...

ـ نعم .

ـ ويلى كيف فعلت ذلك ؟

قالت ذلك كأنها تندب ، ثم تابعت بصوت غامض متضرع :

ـ اللهم انى أتوب اليك واستغفرك .

ـ هل شعرت بالذنب ؟

ـ نعم ، ولن أعود الى مثله ، ولو اقتضى الأمر أن أترك هذا العمل كله . أحس بالشوق القديم يتسلل الى قلبه .. حدثها عن الشيخ عبد الوهاب وما دار بينهما فى هذا الموضوع . أبدت رغبتها فى أن تسمع من الشيخ ، تندت عيناها بالدموع رق لها قلبه .

ولما عاد المخرج لم يجدهما ..

كتب للمؤلف

١ – دراسات :

غرام الأدباء	سلسلة ((اقرأ))	١٩٥٦
أدباؤنا فى طفولتهم	المكتبة الثقافية	١٩٦٠
كتاب معاصرون	دار الكرنك	١٩٦٢
قصص أعجبتنى	سلسلة الألف كتاب	١٩٦٤
كتب فى الميزان	دار الكتاب العربى	١٩٦٥
محمد تيمور – حياته وأدبه	دار الكتاب العربى	١٩٦٦
الواقعية فى الأدب	وزارةالارشاد بالعراق	١٩٦٥
القصة القصيرة فى مصر	الهيئة العامة للكتاب	١٩٦٨
أدب المقاومة	الهيئة العامة للكتاب	١٩٧٠
الأدب والمواطن	سلسلة كتابى (دار المعارف)	١٩٨٢
خطى مشيناها	سلسلة ((اقرأ))	١٩٧٨
هؤلاء عرفتهم	سلسلة ((اقرأ))	١٩٨٤

٢ ـ روايـــات :

حمـزة العـرب	الهيئة العامة للكتاب	١٩٦٦
الصحصـاح	دار الهـــلال	١٩٦٧
ذات الهمـــة	ادارة النشر للقوات المسـلحة	١٩٦٨
الفـارس الأسـود	الهيئة العامة للكتاب	١٩٦٩

٣ ـ قصص قصـيرة :

الســت عليــة	الكتـــاب الـذهبى (روزاليوسف)	١٩٦٠
مديحـــة	الكتاب الماسى (الدار القوميــة)	١٩٦٣
العجـوز والحـب	الهيئة العامة للكتاب	١٩٦٩
ذكريــاتى الأديبــة	الهيئة العامة للكتاب	١٩٨٦

تحت الطبـع :

قضايا وحكايات من الف ليلة وليـلة	دار المعـارف

الفهرس

الصفحة

رقم الايداع ٨٧/١٦٤٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ١٢٤٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب